الفصل الثاني

2

المكونات الأولى للثقافة العربية

«صورة عامة للثقافة في العصر الجاهلي»

أودُّ بدءاً قبل أن أخوض غمار المقومات الأولى للثقافة العربية في عصر الجاهلية أن أؤكد على أمور عدة تتعلق بهذا العرض:

أولها: أنه عرض غير مستغرق، بمعنى أنه لا يتضمن كل مفردات الحياة العربية بشكل تفصيلي وثيق نظراً لما يحتاجه ذلك من مجلدات ضخام وبحوث مستفيضة لا يتسع الوقت لإنجازها، ولا يسمح به حجم البحث ولأن هناك كتباً كثيرة أوفت الموضوع حقه وكتب التراث أكثر من أن تحصى في صعيد واحد هنا، أما الدراسات الحديثة الجادة التي أوفت الحياة الجاهلية حقها أو قاربت، فنذكر منها:

1- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسي.
2- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي.
3- العرب قبل الإسلام، جرجي زيدان.
4- فجر الإسلام، أحمد أمين.
5- الحياة الأدبية في عصر الجاهلية، عبد المنعم خفاجي.

والبحث لن يستطيع أن يزيد على هذه الدراسات شيئاً ذا قيمة على الأقل في الوقت الراهن.

ثانيها: أن الاهتمام في هذا العرض سيكون على المتفق عليه، وسأحاول أن أبتعد عن مواطن الاختلاف، خاصة بعد أن حددت مفهومنا الثقافي العام.. فلم يعد لي اهتمام أن أرسم صورة مزدهرة خيالية لحياة عقلية أو حضارية أو مادية راقية في العصر الجاهلي، وإنما القصد

هو رصد ماهية الحياة الثقافية من حيث كينونتها ووجودها فقط، ولا أريد أن أتورط في إعطاء قيمة معينة لأي حدث ثقافي في أثناء هذه الدراسة، لا أملك الاستعداد الكافي لإعطائه.

ثالثها: أن غاية هذا البحث نقدية، وهذه الغاية هي التي تبرر آليات التعامل مع الثقافة العربية، نعم إن الغاية النقدية لا تعني السطحية وعدم العمق الثقافي أو الفكري، ولكنها في الوقت ذاته لا تؤمن بالقيمية التصنيفية الصارمة[1]، والمهم هنا هو امتلاك أدوات الفهم الثقافي الصحيح، وليس الفهم الافتراضي الغيبي الذي يفرض من وجهات نظر تحليلية مقارنة.. بمعنى الاكتفاء بواقع الحياة في الجزيرة العربية على الأقل كما حفظه العرب أنفسهم، وكما اتفقوا على أكثره.

رابعها: لأجل ذلك فمن الأنسب الابتعاد عن جمع الشذرات والنوادر وإقامة القواعد والأسس عليها، وبناء صروح المجد العربي والازدهار العربي والتفوق العربي، كما سبق وأن تورط في ذلك بعض مؤرخي الحياة العربية الجاهلية.

مقومات الثقافة العربية:

1- العرب أصلاً وجنساً:

نبحث عن العرب لنحدد إطارنا البحثي ولنعرف من هم القوم الذي نكتب عنهم؟ وليتبين لنا المدلول الصحيح للكلمة، مطابقة للدال "العرب".

ولفظ العرب لفظ قديم ورد في نصوص توراتية وورد أيضاً في بعض النقوش المكتشفة التي ترجع إلى أزمان بعيدة...

ويرجح الباحثون أن الكلمة تعني في أصلها القديم الذي وردت فيه البدو أو البداوة أو حياة التنقل والترحال التي كانت صفة مميزة لبعض العرب المتاخمين للشام والعراق[2].

وأما كتابنا المحدثون، فمنهم من حاول إيجاد تفسير لغوي للفظ كما فعل الألوسي عندما

(1) القيمية: إصدار أحكام تخص القيمة الفنية للعمل الأدبي. التصنيفية: التصنيف النقدي انطلاقاً من مناهج تاريخية.. أو نظريات نقدية.. بمعنى إمكانية تداخلها.

(2) انظر: زيدان، جرجي، العرب قبل الإسلام، ص 42، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

أرجع لفظ العرب: إلى الفصاحة، والإبانة، وذلاقة اللسان فالعرب عنده جيل من الناس لم يزالوا موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام. والفصاحة في المنطق، والذلاقة في اللسان، ولذلك سموا بهذا الاسم، فإنه مشتق من الإبانة لقولهم: أعرب الرجل عما في ضميره إذا أبان عنه[1].

وأما د. محمد عبد المنعم خفاجي فيرجع اللفظ أيضاً إلى مسألة التنقل والترحل يقول: أصل الكلمة على اختلاف أوضاعها يدل على التحول والانتقال مثل: عبر وبرع.. إلخ[2].

والظاهر أن صفة البداوة هذه هي أصل الكلمة، وربما كان لفظ عرب أو أعرابي أو غيره مما يحتمله اللفظ من اشتقاقات كانت تعني في بعض اللغات القديمة هذا المعنى بعينه أي معنى البداوة.

وربما شاع هذا المعنى أيضاً بين العرب أنفسهم فهم كانوا يطلقون على البدو "أعراب" وفي المعاجم اللغوية نجدهم يفرقون بين العرب والأعراب بإطلاق الأول على الحضر، والثاني على البدو، وربما سمعنا من علماء الرواية من يقول: القبيلة الفلانية وعربها، يقصد الرجل من أبنائها، وفي المقابل وجدنا ياقوت الحموي يقول إن العرب كانوا يطلقون على الجزيرة اسم عربة[3].

وابن خلدون يخلط في كتابه(العبر) بين الأعراب والعرب، بل إنه ـ متأثراً بما شاع في عصره ـ كان يطلق لفظ العرب قاصداً به البدو[4].

ويكاد يجزم الدكتور جواد علي بأن اللغات السامية القديمة جميعاً كانت تطلق لفظ العرب بمعنى البداوة والأعرابية ولما توسعت مدارك العجم، وزاد اتصالهم، واحتكاكهم بالعرب وبجزيرة العرب توسعوا في استعمال اللفظة حتى صارت تشمل أكثر العرب، ومن هنا غلبت عليهم وعلى بلادهم[5].

(1) الألوسي، محمد شكري، بلوغ الأرب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، ص 8، منشورات دار الشرق العربي، بيروت، د.ت.
(2) خفاجي، محمد عبد المنعم، الحياة الأدبية في عصر الجاهلية، ص 35، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1992.
(3) ياقوت، الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ج 3، ص 335، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
(4) ابن خلدون، العبر، ج 1، ص 312، دار الجبل، بيروت، د.ت.
(5) جواد، علي، المفصل، مصدر سابق، ج 1، ص 25.

أما عند العرب أنفسهم فمنهم من يجعل هذا اللفظ اشتقاقاً من اسم يعرب بن قحطان ويدعي أنه أب العرب، والظاهر أن هذا رأي ضعيف لكون يعرب أباً للقحطانيين والقبائل اليمانية فقط دون باقي العرب، ولغة هؤلاء بعيدة عن لغة العرب الفصحى التي نزل بها القرآن، وينسبون إلى حسان بن ثابت في هذا قوله:

تعلمتم من منطـق الشيخ يعرب　　أبينـا فصرتم معربـين ذوي نفـر
وكنتم قديماً ما بكم غير عجمـة　　كلام وكنتم كالبهائم في القفـر[1]

وفي الشعر الجاهلي نجد اللفظة ترد أحياناً بمعنى الخلوص، أو الصفاء، أي الشيء الذي لا هجنة فيه، ومن ذلك قول شبيب بن البرصاء:

سديساً من الشُعْر العراب كأنهـا　　موكرةٌ من دهم حـوران صـافحُ[2]

وربما استخدموا اللفظة بمعنى أحد أو شخص أو غيرهما، كما في قول ثعلبة بن عمرو:

أخـي وأخوك ببطـن النّسَيْـر　　ليـس بـه من مَعَـدٍّ عَـرِيـب

أي ليس به أحد[3].

وربما استخدم اللفظ في الشعر الجاهلي أيضاً بمعنى الراجل أي ضد الراكب، وبذا فسر فخر الدين قباوة قول زهير:

ترى الجند والأعراب يغشون بابه　　كما وردت ماء الكلاب هواملة[4]

قال: الأعراب يريد الرجالة، والجند: الفرسان[5]، ويبدو أن زهيراً يريد بالأعراب البدو، وأنه يشير بالجند إلى الحضر، فكأنه يريد أن يقول: إن البدو والحضر جميعهم حاضرون لديه، إذ لا فائدة من تصنيف الناس بين راكب وراجل أمام بيته، كما ذهب د. قباوة، ولكن

(1) ابن ثابت، حسان، ديوانه، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي، ج 1، ص 96، دار مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1956.
(2) الضبي، المفضل بن محمد، المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ص 169، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، 1983.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 245.
(4) انظر: قباوة، د. فخر الدين، شرح شعر زهير بن أبي سلمى لأبي العباس ثعلب، مصدر سابق، ص113
(5) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

المراد أن الجميع على اختلاف مصادرهم يردون بابه.

ونخلص من كل ما سبق إلى تقرير ما أورده الألوسي في حق هذا اللفظ "العرب" حيث يقول: إن لفظ العرب هو اسم لقوم جمعوا عدة أوصاف:

أحدها: أن لسانهم كان العربية.

الثاني: أنهم كانوا من أولاد العرب.

الثالث: أن مساكنهم كانت جزيرة العرب[1].

وهو قول – فَيما نَرى – جامع مانع.

والمؤاخذة الوحيدة عليه هو اشتراطه صحة النسب لكي يكون المرء عربياً، وهو شرط فيه بعض اشتطاط إذ يصعب تحقيقه والتحقق منه.

والأفضل أن نعتبر العربي هو من أجاد اللسان العربي ومهر فيه مهارة العرب أنفسهم وتطبع بطباعهم وتخلق بخلائقهم وتثقف بثقافتهم فكأنه عربي قلباً وقالباً وهذا التعريف الآخر يدخل في إطار بحثنا شعراء اليهود كالسموأل وغيره باعتبار أن ثقافتهم ولغتهم هي لغة العرب الجاهليين الأقحاح وإن كان نسبهم غير عربي أو كان محل شك في صحته ولكن لا مجال بحال للتشكيك في عربية لسانهم وفكرهم وثقافتهم.

ومن هنا فإن اللغة والثقافة هما الأساس الأكثر سلامة لدراستنا فليس ينفعنا في تفهم الثقافة الجاهلية أن نستشهد بشعر عدي بن زيد وهو البعيد نوعاً ما عن الثقافة العربية بحكم اختلاطه بالفرس ونشأته بينهم حتى فسدت لغته وحتى اطّرحه علماء اللغة فلم يستشهدوا بشعره..

وهكذا فإن صحة اللغة والثقافة هما الشرطان المهمان لدينا للدراسة باعتبارهما يحققان هدف البحث ويستجيبان لمطالبه.

(1) الألوسي، بلوغ الأرب، مصدر سابق، ج 1، ص 11.

2. جزيرة العرب:

شبه الجزيرة العربية هي الموطن المتفق عليه، الذي سكنه أغلب العرب، بيد أنه ليس المكان الوحيد الذي وجد فيه العرب، فالتاريخ يحدثنا عن امتدادات عربية في العراق والشام حتى أقاصيه، وفي سيناء، وربما كان للعرب جيوب في الحبشة والسودان.. وغيرها.

أما شبه جزيرة العرب فهي المعروفة اليوم، وبها دول الخليج العربي، واليمن وتقع في الطرف الغربي من قارة آسيا يحيط بها الخليج العربي من الشرق، وبحر العرب من الجنوب والبحر الأحمر من الغرب، وتخوم الشام شمالاً.

وقد قسمها العرب قديماً إلى أقسام خمسة:

1. اليمن:

وهي في أقصى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة، ومن أهم مناطقها حضرموت، ومهر، ونجران، وعُمان والشَحْر، وربما سمي شحْر عمان، وعدن، وصنعاء.

وفي اليمن قامت حضارات عدة ازدهرت زراعياً واقتصادياً، وقد ذكرها القرآن الكريم غير مرة، من ذلك قوله تعالى: { لقد كان لسبإ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور }[1].

وفي إشارة من القرآن الكريم أيضاً إلى ازدهار هذه الحضارة في اليمن يقول تعالى على لسان هدهد سيدنا سليمان الحكيم عليه السلام: {.. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم }[2].

فقوله تعالى: { وأوتيت من كل شيء } وقوله: { ولها عرش عظيم } يدلنا على تنوع حضاري وازدهار سياسي كان في هذا البلد.

ومن أشهر الحضارات التي قامت في اليمن:

---

(1) سورة سبأ، الآية(15).
(2) سورة النمل، الآية(23).

أ- دولة معين: ويرجح د. محمد عزة دروزة أنها وجدت من فترة ألفي عام قبل المسيح ثم أخذت تقوى وتبسط سلطانها حتى غدت دولة كبرى خلال بضعة قرون بعد هذا الظرف، وتدل المكتشفات الأثرية على أن هذه الدولة قامت في المنطقة التي تمتد بين نجران وحضرموت[1].

وقد كانت عروض التجارة اليمنية في عهد دولة معين تتألف من الطيب، والمر، والبخور، والقرنفل، والبلسم، وسائر النباتات العطرية، هذا إلى ما كان يستخرج من مناجمها من الذهب، والفضة، والحجارة الكريمة.

"وقد ذكر أنه وجد فيها نوع ثمين من الحجارة الكريمة يسمى البقران، والنوع المثلث منه كان ثميناً جداً، وهو ذو وجه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود، وأما ما كانوا يجلبونه من الهند فهو العاج والقصدير والصندل والتوابل"[2].

ب- سبأ: وهي التي أشرنا إليها آنفاً، وذكرها القرآن الكريم وقد اشتهرت سبأ بالعمران وإقامة السدود والمعابد، ومن أعظم المدن فيها مأرب عاصمة دولة سبأ، وأشهر مبانيها سد مأرب الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وقد كانت تلك المنطقة مزدهرة زراعياً على طول الجزيرة العربية، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم { وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدرنا فيها السير، سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين }[3].

يقول د. عبد الوهاب عزام في كتابه(مهد العرب): "إن القرى التي بورك فيها هي الشام، فقد كانت القرى ومظاهر العمران متصلة بين اليمن والشام.. "[4].

وفي مأرب يقول الأعشى:

وفي ذاك للمؤتسي أسْوَةٌ ومأربُ عفَّى عليها القرم
رخامٌ بنته لهم حْميرٌ إذا جاء موّاره لم يرمْ

(1) انظر: دروزة، د. محمد عزة، تاريخ الجنس العربي، ص 24، المطبعة العصرية، بيروت، 1995.
(2) انظر: حمور، عرفان، أسواق العرب في الجاهلية، ص 24، دار الشورى، بيروت، 1995.
(3) سورة سبأ، الآية(18).
(4) عزام، د. عبد الوهاب، مهد العرب، ص 112، دار المعارف، القاهرة، 1968.

فأروى الـزروع وأعنابهـا على سعة ماؤهم إذ قسـم
فصاروا أيادي ما يقدرون منه على شرب طفل فُطم[1]

ج ـ حميـر: قامت دولة حمير على أنقاض دولة سبأ في حوالي سنة 115 ق.م، وامتد نفوذها إلى قبائل وسط الجزيرة العربية، وقد كانت دولة فتية تميل إلى العمارة والتشييد والبناء، وقد وصف الهمذاني قصر غمدان الحميري في صنعاء بأنه كان يتكون من عشرين طابقاً، وأن سقف الطبقة العليا كان قطعة صخرية واحدة بلورية شفافة يستطيع الناظر من خلالها إلى السماء أن يميز بين أصناف الطيور التي تعلو فوقه، وكانت حجارة القصر ملونة، وفي كل زاوية من القصر تمثال أسد من نحاس مجوف، فإذا هبت الريح سمع لهذه التماثيل صوت يشبه زئير الأسود، وبقي هذا القصر قائماً إلى عهد سيدنا عثمان بن عفان[2].

وفي عهد دولة حمير كانت القراءة والكتابة منتشرة كما تدل على ذلك الكشوف الأثرية.

2. تهـامة:

هي الجزء الواقع في غرب جبل السراة الذي يقسم شبه الجزيرة العربية من الجنوب "اليمن" إلى الشمال "الشام" قسمين. وهي أرض منخفضة وتسمى الغور، وتمتد على شاطئ البحر الأحمر وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها[3].

3. الحجاز:

أرض جبلية كثيرة المياه، وبها وديان كثيرة أشهرها وادي القرى ومن أشهر مدن الحجاز، مكة، ويثرب، وتنتشر في الحجاز الآبار والعيون التي تنمو عليها النباتات، وفي ذلك يقول بلال بن رباح رضي الله عنه:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخـر وجليـل

(1) الأعشى، ميمون بن قيس، ديوانه، دار صادر، بيروت، 1960.
(2) الهمذاني، صفة جزيرة العرب، نقلاً عن: عرفان حمور، أسواق العرب، ص 28.
(3) حمور، عرفان، أسواق العرب، مرجع سابق، ص 27.

ويقصد بذلك مكة، وفي وادي القرى يقول الشاعر:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادي القرى إني إذاً لسعيد

4. العروض:

وهي صحار وسهول ساحلية تشمل اليمامة والبحرين، وما والاهما وسميت عروضاً لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق وفيها كثير من العيون، ويظن أنها كانت موطئاً لقبيلتي طسم وجديس.

5. نجد:

وهي المنطقة الواقعة في وسط شبه الجزيرة، وسميت نجداً لارتفاع أرضها وتشمل وادي الرمة وما حاذى الحجاز وهي أقسام: منها نجد العالية، ونجد السافلة، وفي نجد يقول الشاعر:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجداً على وجد[1]

وفيها يقول الشاعر أيضاً:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

ألا يا حبذا نفحات نجد وريّاً روضه بعد القطار

ولابن الصمة القشيري فيها أيضاً:

قفا ودعا نجداً ومن حل بالحمى وقل لنجد عندنا أن يودعا

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا وما أجمل المصطاف والمتربعا

وعموماً، فإن أرض شبه الجزيرة العربية تتميز بصحرائها الواسعة الممتدة، وقفارها المترامية، وجبالها الكثيرة الجرداء المختلفة الألوان، وحرارها المتفرقة في أرجائها.

وأشهر الأودية بشبه الجزيرة وادي الدهناء بنجد، وهو في مواطن تميم بالقرب من البصرة، وبينما تكثر في بلاد اليمن الأودية والرياض تقل نسبياً في الحجاز، فيعتمد أهله على

(1) البيت لعبد الله بن الدمينة الغنيمي، انظر: السيوطي، عبد الرحمن، شرح شواهد المغني، تحقيق: محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي، ج 1، ص 425، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

العيون أو ماء المطر.. ولعدم نزول المطر في مواعيد منتظمة تعذر على العرب المكث في مكان واحد ومن أجل ذلك أكثروا الرحلة، والانتجاع لمواقع الماء، ومنابت الكلأ.

وجو شبه الجزيرة العربية شديد الحرارة في تهامة مع رطوبة شواطئها الواقعة على البحر الأحمر، شديد البرد في الشتاء ليلاً أما نجد فمعتدلة الهواء، وحول الأودية يكون ذلك أكثر لارتفاعها ووجود الأشجار فيها، وأما اليمن فمعتدلة شتاءً شديدة الحرارة صيفاً، ينزل بها المطر بغزارة في الربيع، وأطيب الرياح بشبه الجزيرة ريح الصبا، وأشدها حرارة ريح السموم[1].

ولا نريد أن نخرج من هذا المبحث قبل أن نعرض لبعض المراكز العربية المهمة الأخرى التي وجدت خارج شبه الجزيرة العربية تقريباً وكانت حاضرة من حواضر العرب المهمة التي لها تأثير على الثقافة العربية في ذلك الوقت، ومن تلك الحواضر:

أ- **البتراء:** عاصمة العرب الأنباط وهي اللفظ اليوناني لكلمة الرقيم عند العرب، كانت البتراء المدينة الوحيدة شمالي الحجاز التي تتوفر فيها المياه العذبة، وكانت مركزاً رئيساً يربط بين الجنوب والشمال ويسيطر على التجارة في تلك الأنحاء، ويذكر فيليب حتي في كتابه "تاريخ سورية" أنه يمكننا الافتراض أن التجار الأنباط كانوا يتكلمون لغتين على الأقل بجانب اللغة العربية كاليونانية والآرامية[2].

ب- **تدمر:** في بادية العراق في موقع متوسط بين العراق والشام وشبه الجزيرة العربية وهي الآن في سوريا، وكانت نقطة إمداد مهمة للقوافل التجارية وشهدت حضارة متميزة، بسبب من قوافلهم التجارية التي كانت تجوب الصحراء، وتسافر إلى الشام والعراق وغيرهما.

ج- **الحيرة:** عاصمة العرب المناذرة اللخميين أنشأوا حضارة مهمة، وكان شعراء العرب يقصدونهم فيها من كل صوب، وكانت لهم علاقات سياسية متميزة مع ملوك فارس، ومما ينسب لهم من فضل تدوين المعلقات[3].

---

(1) انظر: الحوفي، د. أحمد، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، ص 25، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1992.

(2) نقلاً عن: عرفان حمور، أسواق العرب، مرجع سابق، ص 31. والنص باللفظ عند فيليب حتي، تاريخ سورية، ترجمة: د. أنيس فريحة، ص 62، دار الثقافة، بيروت.

(3) حتي، فيليب، تاريخ الشرق الأدنى، مصدر سابق، ص 65. نقلاً عن: عرفان حمور، المرجع السابق.

3- الدين عند العرب:

من الصعب القول بوجود نظرية دينية كاملة عند العرب تفسر الكون والحياة، وتضع نظاماً شاملاً لحياة الإنسان كما في باقي الأديان.

بيد أن حاجة الإنسان ماسة إلى الدين، منذ وجد، وبحكم فطرته وبطبيعته، فقديماً انشغل الإنسان بهذا الوجود منطلقاً من وجوده هو ذاته، ما غايته؟ وما الحاجة إليه؟ وكيف وجد؟ ومن أوجد كل هذه الكائنات من حوله؟ وما علاقته هو بها؟.

ثم تأمل كثيراً في هذه الحياة، في علاقته بالآخرين، في سر الحياة والموت.. وغير ذلك.

كل هذه الأشياء ليس ممكناً أن يقف الإنسان متجاهلاً لها، وغير مهتم بها، فالحاجة إلى المعرفة في هذا الإطار كانت ماسة وملحة وإن كانت طبيعة الاهتمام وشدته تختلف من شخص إلى آخر بحكم تعدد المدارك وسعة الأفق.

ولكن ما من أحد يستطيع أن يتجاهل كل هذه الأشياء طوال الوقت فلابد من وقفة يوماً أو في ساعة من يوم ليبحث هل يجد إجابة تشفي غليله من هذه التساؤلات.

وهكذا فإن ديدن بني البشر دائماً البحث والنظر والتأمل منذ خلقوا، وهذا بعينه هو أساس الدين، الذي يعطي إجابات للفطرة الإنسانية الحائرة التائهة.

ونجد في الحضارات القديمة، اليونانية مثلاً بحوثاً مستغرقة كثيرة عن الوجود.. المبحث الأساس لكل الفلسفة والذي قاد الإنسان فيما بعد إلى اكتشاف علوم أخرى مساعدة له كالرياضيات والمنطق والفلك وغيرها..

فهاجس الوجود إذن هو سبب رئيس لبحث الإنسان في الحياة.

ولم تكن الدنيا قد بدأت فجأة في العصر الجاهلي.. فقد كانت هناك قبلهم أقوام وكانت أديان.. وكانت عبادات..

ويخبرنا المولى عز وجل في القرآن الكريم أنه قد أرسل إلى هذه المنطقة رسلاً، وقص علينا قصة سيدنا إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل وكيف بنيا الكعبة المشرفة.. وفي دعائهما حيث

يقولان: { ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم }[1].

وفي موضع آخر على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام { ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات }[2].

ودين إبراهيم عليه السلام كان منتشراً بين العرب قبل البعثة كما يقول الآلوسي "اعلم أن العرب من عدنان وقحطان كانوا على بصيرة من أمرهم يتعبدون بشريعة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.. وقد تلقوها من ولده نبـي الله تعالى إسماعيل عليه السلام، وهي الحنيفية التي جاء بها محمد ﷺ "[3]. وربما بقيت بعض عقائد الحنيفية عند العرب إلى ظهور الإسلام وإن كانت قد حرفت، أو دخل عليها كثير من الشرك.. ومما يدلنا على ذلك إقرارهم الصريح بوجود الله كما في قوله تعالى: { ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله }[4]. وقوله تعالى { ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله}[5]. وقوله تعالى: {قل لمن الأرض ومن فيها إن كنت تعلمون سيقولون لله}[6]. وقوله تعالى: { قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله }[7]. وفي تعليل عبادتهم للأصنام يقولون: { ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى }[8].

(1) سورة البقرة، الآية (128).
(2) سورة إبراهيم، الآية (39).
(3) الألوسي، بلوغ الأرب، مصدر سابق، ج 2، ص 210.
(4) سورة لقمان، الآية (24).
(5) سورة الزخرف، الآية (87).
(6) سورة المؤمنون، الآية (85 ـ 86).
(7) سورة يونس، الآية (31).
(8) سورة الزمر، الآية (3).

الموحدون:

بقيت فئة تدين بدين إبراهيم عليه السلام وترى أنه هو الحق الذي لا مرية فيه، وأنكرت ما كان يعبده العرب من أصنام وأوثان كما يقول أمية بن أبي الصلت:

كل دين إلى يوم القيـــــامة (م) غير دين الحنيفية زور[1].

" ومذهب أهل الأخبار أن العرب كانوا على دين واحد هو دين إبراهيم دين الحنيفية ودين التوحيد "[2]. وقد كان هؤلاء " ملتزمين ما كانوا عليه من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة.. وغير ذلك "[3].

وربما يفسر هذا بقاء بعض ألفاظ التوحيد في شعر بعض العرب وإن كان مشكوكاً في صحته – مثل ما ينسب إلى حاتم الطائي من قوله:

كلوا اليوم من رزق الإله وأيسروا وإن على الرحمن رزقكـــم غدا[4]

وكما ينسب إلى الشنفرى قوله:

لقـد لطمـت تلك الفتـاة هجينهـا ألا قَضـب الرحمـنُ ربـي يمينهـا

وقول سلامة بن جندل:

عجلتـم علينـا إذ عجلنـا عليكـم وما يشأ الرحمن يقعد ويطلـــق[5]

ومن الموحدين الأحناف عند العرب قس بن ساعدة الإيادي وزيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبي الصلت.

الوثنيون عبدة الأصنام:

كان الغالبية العظمى وثنيين يعبدون الأصنام من دون الله، وقد حكى القرآن الكريم

(1) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ج 4، ص 122، نشر لجنة الترجمة والتأليف والنشر، القاهرة، 1956
(2) جواد، علي، المفصل، مصدر سابق، ج 9، ص 34.
(3) الألوسي، بلوغ الأرب، مصدر سابق، ج 2، ص 36.
(4) الطائي، حاتم، ديوانه، ص 15، دار صادر، بيروت، د.ت.
(5) الطبري، ابن جرير، تفسير القرآن العظيم، ج 1، ص 44 كل الأبيات السابقة، دار الفكر، بيروت، 1978.

تعليلهم ذلك بقوله على لسانهم: { ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى }[1].

إذن فهم مقرون أولاً بوجود الله، ولكنهم اتخذوا الأصنام واسطة تقربهم من الله ابتغاء مرضاته. وهذا ليس غريباً على بني البشر الذي يقفون عاجزين أمام كل أمر خارق للعادة، كما فعل بنو إسرائيل عندما عبدوا العجل { واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين }[2].

وربما كان سبب ذلك تعظيمهم لبعض الظواهر الكونية وعجبهم بشدة بزوغها وضيائها كما ضرب المولى في ذلك المثل بقصة سيدنا إبراهيم وعبادته للكواكب.

وعن سبب عبادة العرب للأوثان يقول هشام بن الكلبي في كتاب "الأصنام": "حدثني أبي وغيره أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثيرة حتى ملأوا مكة ونفوا من كان فيها من العماليق فضاقت بهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً فتفسحوا في البلاد والتماس المعاش، وكان الذي سلح بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما حلوا وضعوه، وطافوا به كطوافهم بالكعبة صبابة بهم وحباً، وهم على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار ثم سلح بهم ذلك إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان..، فكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام عمرو بن لحي بن حارثة الأزدي أبو خزاعة.. ثم إنه مرض مرضاً شديداً فقيل له إن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا فقدم بها مكة، ونصبها حول الكعبة "[3].

وأياً كانت صحة هذه الرواية، فالذي لا شك فيه أن العرب عبدوا الأوثان وهذا أمر ليس محل شك من أحد.

---

(1) سورة الزمر، الآية (3).

(2) سورة الأعراف، الآية (148).

(3) ابن الكلبي، هشام بن محمد السائب، الأصنام، تحقيق: أحمد زكي، ص 26، دار الكتب المصرية، 1932

وإلى جانب الأصنام وجدنا أيضاً عبادة الكواكب كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قصة بلقيس ملكة سبأ {وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله}[1] وفي القرآن أيضاً { لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون }[2].

أصنام العرب:

ذكر القرآن الكريم بعضاً من أصنام العرب من ذلك قوله تعالى: { أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى }[3]. وذكر ابن الكلبي أن اللات صخرة مربعة بيضاء بنت ثقيف عليها بيتاً صاروا يسيرون إليه يضاهون به الكعبة[4].

وقد ورد ذكر اللات غير مرة في الشعر الجاهلي وغيره، ومن ذلك قول أوس بن حجر:

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر

وفيها يقول شاعر أيضاً:

وفرت ثقيفٌ إلى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر[5]

العزى: وهي صنم أنثى كذلك، ويبدو أنها كانت شجرات يسمعون منها أصواتاً، ومن الرواة من قال إنها حجر أبيض:

وفي العزى يقول زيد بن عمرو بن نفيل:

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابْنَتَيْها ولا صنَميْ بني غنم أزور[6]

مناة: وهي صنم كان على ساحل البحر من ناحية المشلل وهو على سبعة أميال من المدينة، وفي مناة يقول عبد العزى بن وديعة الخزاعي:

(1) سورة النمل، الآية(24).
(2) سورة فصلت، الآية(36).
(3) سورة النجم، الآية(19 ـ 20).
(4) ابن الكلبي، الأصنام، مصدر سابق، ص 130.
(5) الأغاني، الأصفهاني، مصدر سابق، ج 19، ص 80.
(6) المصدر السابق نفسه، ج 9، ص 102.

إني حلفت يمين صـدق بـرةٍ بمنـاة عند محل آل الخزرج[1]

هبـل: يقول عنه ابن الكلبـي "كانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وما حولها، وكان أعظمها هبل، وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر"[2].

أصنام قوم نوح:

وهي خمسة، وقد ذكرها القرآن الكريم وبقيت في أرض العرب حتى البعثة المحمدية المباركة { وقالوا لا تذرن آلهتكم، ولا تذرن ودا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا }[3].

وجميع هذه الأصنام الخمسة في أرض العرب، وقد ورد ذكرها في الشعر الجاهلي.

تراهـم حول قبلتهـم عكوفـاً كما عكفت هذيل علـى سـواع[4]

وفي يغوث يقولون:

وسـار بنـا يغـوث إلـى مـراد فنـاجزنـاهـم قبـل الصبـاح[5]

وفي يعوق قال الشاعر:

يريـش الله فـي الدنيـا ويبـري ولا يبـري يعـوق ولا يـريـش[6]

وهناك أصنام أخرى كثيرة في مواقع عدة من بلاد العرب من ذاك أساف ونائلة، فيهما يقول أبو طالب:

أحضرت عند البيت رهطي ومعشري وأمسكـت مـن أثـوابـه بالوصـائـل
وحيـث ينيـخ الأشعـرون ركـابهم بمفضى السيـول مـن أساف ونائل[7]

(1) الأصنام، مصدر سابق، ص 135.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 27.
(3) سورة نوح، الآية(23).
(4) ابن الكلبـي، الأصنام، مصدر سابق، ص 136.
(5) المصدر السابق نفسه، ص 139.
(6) المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها.
(7) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، ج 1، ص 63، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.

ومنها أيضاً مناف، وفيه يقول بلعاء بن قيس:

وقـرن قـد تركـت الطير منـه كمعتـبر العـوارك مـن منـاف[1]

ومنها أيضاً ذو الخلصة، وفيه يقول الراجز:

لو كنت ياذا الخلصة الموتورا مثلـي وكان شيخـك المقبـورا

(لم تنـه عن قتـل العـداة زورا[2])

ومنها سعد الذي أورد الإخباريون عنه هذه القصة، فقد أقبل رجل من العرب بإبل له ليوقفها عليه يتبرك بذلك فلما أدناها منه نفرت وكان يهراق عليه الدماء، فذهبت في كل وجه وتفرقت، فقال الرجل فيه:

أتينا إلى سعـد ليجمـع شملنـا فشتتنـا سعـدٌ فـلا نحـن مـن سعـد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفـة مـن الأرض لا يدعى لغي ولا رشد[3]

ومنها ذو الكفين، وذو الشرى، والأقيصر، الذي ورد في شعر زهير بن أبي سلمى:

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهدا ومـا سحقت فيه المقاديم والقمل[4]

وفي شعر الشنفري الأزدي:

وإن امرءاً أجار عمـراً ورهطـه عليّ وأثـواب الأقيصـر يعنـف[5]

والذي يظهر من أشعار العرب أنهم كانوا يتفاوتون في اعتقادهم بالأصنام فبينما نجد زهير بن أبي سلمى يجتهد في الحلف بها "حلفت بأثواب الأقيصر جاهداً"، وكما في قول الشنفرى الأزدي "وأثواب الأقيصر" نجد آخرين يقفون منها موقفاً ساخراً لا مبالياً بها كما فعل الأعرابي الذي وجد صنماً قد بال عليه ثعلبان فقال:

أربٌّ يبـول الثعـلبـان بـرأسـه لقد ذل من بالت عليـه الثعالـب

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 1، ص 62.
(2) ابن الكلبـي، الأصنام، مصدر سابق، ص 135.
(3) ابن الكلبـي، الأصنام، مصدر سابق، ص 35.
(4) شرح ديوان زهير، مصدر سابق، ص 211.
(5) الأصنام، مصدر سابق، ص 137.

وكما في الأمثلة السابقة التي انتقيناها من جانب السخرية عن عمد، وقد نقلت الروايات أسماء أوثان كثيرة انتقلت إلى الجزيرة العربية من الشعوب المجاورة، منها ما كان يدل على الكواكب، ومنها ما كان يدل على معان مطلقة[1].

4- اليهودية عند العرب:

لم يكن العرب قط معزولين تماماً عن العالم من حولهم.. رغم صعوبة الاتصال بالأمم المجاورة لعدة ظروف من أهمها: الصحراء القاحلة التي تهلك فيها الأنفس، والدواب، قبل سلوكها.. ولعدة ظروف أخرى..

ولكن رغم ذلك فإن العرب "كانوا على اتصال دائم بمن حولهم أدبياً ومادياً وإن كان هذا الاتصال أضعف مما كان بين الأمم المتحضرة لذلك العهد نظراً لموقعها الجغرافي ولحالتها الاجتماعية"[2].

وهذا الاتصال بين العرب وغيرهم كان من عدة طرق أهمها:

1- التجارة.
2- إنشاء المدن المتاخمة لفارس والروم.
3- البعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب تدعو إلى دينها وتنشر تعاليمه.

والوجود اليهودي في الجزيرة العربية قديم قدم اليهودية نفسها كما تخبرنا المصادر التاريخية يقول د. جواد علي: "يظهر من مواضع من التلمود أن نفراً من العرب دخلوا في اليهودية.. وفي هذه الروايات التلمودية تأييد لروايات أهل الأخبار التي تذكر أن اليهودية كانت في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة. وذكر اليعقوبي أن من تهود من العرب اليمن بأسرها كان تبع حمل حبرين من أحبار اليهود إلى اليمن.. فأبطل الأوثان وتهود من باليمن.. "[3].

(1) عبد السلام كفافي، الحضارة العربية، مرجع سابق، ص 22.
(2) أمين، أحمد، فجر الإسلام، مرجع سابق، ص 12.
(3) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 515، نقلاً عن: إسرائيل ولفنسون من كتابه تاريخ اليهود في بلاد العرب.

غير أن المصادر اليهودية لا تعير كبير اهتمام إلى يهود شبه الجزيرة العربية ويبدو أنهم لم يكونوا في الصميم من المجتمع اليهودي، أو أنهم فروا إلى شبه الجزيرة نظراً لاضطهاد وقع عليهم من أبناء دينهم أو أنهم تمذهبوا بمذهب في دينهم غير المذهب الذي كان سائداً عند باقي اليهود.

وهذا ما أشار إليه بعض الباحثين الذين يرون "أن يهود جزيرة العرب كانوا في معزل عن بقية أبناء دينهم وانفصال، وأن اليهود الآخرين لم يكونوا يرون أن اليهود في الجزيرة العربية مثلهم في العقيدة بل رأوا أنهم لم يكونوا يهوداً لأنهم لم يحافظوا على الشرائع الموسوية ولم يخضعوا لأحكام التلمود.. ولهذا لم يرد عن يهود جزيرة العرب شيء في أخبار المؤلفين العبرانيين"[1].

بيد أن افتراض العزلة هذا الذي ذكرناه آنفاً يحوم حوله شك كبير وهي نفسها "تحتاج إلى سند يثبت وجود تلك العزلة، فمواضعهم في أعالي الحجاز على اتصال ببلاد الشام ثم إنهم كانوا على اتصال مستمر بهم للتجارة. فكيف يكون يهود جزيرة العرب في معزل عن غيرهم مع وجود الأسفار والتجارة، ولاسيما أن أحبار طبرية كانوا يأتون إلى يهود اليمن ليلقنوهم أمور الدين ولا يستبعد أن يكون من بين أولئك الأحبار من ذهب إلى يهود يثرب أو خيبر أو تيماء"[2].

وربما كان السبب الذي دفع المؤرخين اليهود إلى تجاهل وجود يهود جزيرة العرب هو أسباب عنصرية أو مذهبية كما أسلفنا..

عنصرية باعتبار أن اليهود المشار إليهم في التلمود هم من قومية عربية أي ليسوا إسرائيليين خالصين وهذا ما أشار إليه بعض المستشرقين "استناداً إلى دراسة أسماء يهود الحجاز عند ظهور الإسلام فأولئك اليهود لم يكونوا يهوداً حقاً بل كانوا عرباً متهودين، تهودوا بتأثير الدعاة اليهود"[3]. وإذا كان السبب مذهبياً فربما لأن يهود شبه الجزيرة العربية

(1) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 514.
(2) المصدر السابق نفسه، ج 6، ص 559.
(3) المصدر السابق نفسه، ج 6، ص 530.

الذين خالطوا العرب فتكلموا بلغتهم وأبدعوا من خلالها، قد اعتادوا بعض العادات العربية وتأثروا بها كما تأثر بهم العرب، ولهذا فلا يستبعد إذن رأي من يقول بوجود اختلاف في وجهة نظر يهود فلسطين مع يهود الحجاز إذ قد يكون يهود الحجاز ويهود جزيرة العرب عموماً تأثروا بالعرب الذين خالطوهم فخففوا من التمسك بشعائرهم الدينية.

إذن فقد انتشر اليهود في جزيرة العرب قبل الإسلام بقرون "فتكونت في الجزيرة العربية مستعمرات يهودية أشهرها يثرب"[1].

وربما استعمل أحمد أمين لفظة المستعمرة بالمعنى الحديث لها والمقصود بها مستوطنة صغيرة وفي يثرب المدينة المنورة فيما بعد عرفنا يهود بن قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع وعرفنا يهود خيبر، وهؤلاء كانوا موجودين إلى دخول الإسلام إلى أن أجلاهم عن هذه القرى النبـي ﷺ بعد الهجرة بعد أن تآمروا عليه وناصبوه العداء وتعاونوا مع أعدائه.

أما في جنوب يثرب حتى اليمن "فالظاهر أنه لم تكن لليهود جاليات كبيرة هناك لعدم إشارة أهل الأخبار إليهم، وإن كنت لا أستبعد وجود أسر أو أفراد بينهم في مكة، وفي المدن التي اشتهرت بالتجارة كبعض موانئ البحر الأحمر وموانئ السواحل العربية الجنوبية، غير أن وجودهم في هذه المواقع لم يكن له أثر واضح مهم، فلم يتجاوز محيط التجارة والاتجار"[2].

أما في اليمن فالوجود اليهودي، وإن ضعف هناك بدخول الحبشة فيها، فقد بقيت مع ذلك محافظة على كيانها فلم تنهزم ولم تجتث من أصولها وبقيت قائمة في هذه البلاد في الإسلام لذلك فلم يجل عنها أهلها كما أجلي يهود خيبر وظلت بقيتهم هناك إلى سنوات قريبة..

أثر اليهودية في العرب:

عرف اليهود عند الجاهليين، وكانت لهم مساكن معروفة في يثرب، واليمن، وفي مواضع أخرى في شبه جزيرة العرب.. والذي نشير إليه هنا هو أن اليهود في جزيرة العرب كانت لهم تجمعات خاصة، تقيم شعائرها فيما بينها، وتحكمها شريعتها، وقوانينها، غير أن اللافت للنظر

(1) أمين، أحمد، فجر الإسلام، ص 23.
(2) جواد علي، المفصل، مصدر سابق، ج 6، ص 530.

أن اليهودية كانت محدودة الانتشار بين العرب، برغم وجود يهودي كثيف في بعض المناطق ورغم وجود بيئة صالحة لاعتناق اليهودية، إذ كان العرب خالين تقريباً من أي فكر ديني عميق، يمكن أن يصمد ضد تعاليم اليهودية التي كانت تحمل أفكاراً ومدلولات لا توجد – على الأقل – عند العرب.

ويعلل د. حسين الحاج حسن ذلك بقوله: "لم تستطيع اليهودية أن تكتسح الوثنية الجاهلية لأن كثيراً من أحكامها شاق على العرب ولأنها لا تبيح الانتفاع بغنائم الأعداء، بل بوجوب إحراقها، والعربي يقاتل ليثأر، ويغنم وينتفع بالمال والأسرى. ونستطيع القول إن أثر اليهودية في العرب كان ضعيفاً سواء من الناحية النظرية أم من الناحية العملية..."[1].

ورغم أننا لا نتفق مع د. حسين الحاج في أن أثر اليهودية كان ضعيفاً.. وهذا ما سنبينه في مبحث في إطار هذا الفصل.. إلا أن هذه المعوقات الصادة للعرب عن اليهودية والتي ذكرها د. حسين الحاج كانت على درجة من الأهمية.

أما عن انتشار اليهودية في الجزيرة، فهم قد انتشروا في اليمن وهناك يهود غير قليل من سكان اليمن بعد أن اعتنقها الملك تبع أسعد بن أبي كرب، كما انتشروا في حصن خيبر، وكان هناك بنو قريظة وبنو النضير، وربما تهود قوم من بني الحارث بن كعب[2]، و اشتهر اليهود بالقراءة والكتابة، وورد ذلك في الشعر الجاهلي يقول الأسود بن يعفر:

سطـورُ يهوديْيـن في مُهرقيهْما مجيديْن من تيماء أو أهل مدين[3]

وفي اليهود أيضاً شعراء يجيدون اللغة العربية، منهم كعب بن الأشرف الذي أمر النبـي بقتله بعد أن آذى المسلمين بهجائه، ومنهم السموأل بن عادياء المشهور بين العرب بالوفاء فضرب به المثل فقيل أوفى من السموأل، وتنسب إليه في ذلك أبيات منها:

وفيـت بـأدرع الكنـدي إنـي إذا مـا خـان أقـوام وفيـت[4]

(1) د. حسين الحاج حسن، حضارة العرب في الجاهلية، ص 181.
(2) انظر: جواد علي، المفصل، ج 4، ص 514.
(3) انظر: الأغاني، ج 6، ص 152.
(4) الأغاني، مصدر سابق، ج 3، ص 67.

وهذا الوجود الكثيف لليهود في الجزيرة العربية لم يكن وجوداً عابراً لا يثير انتباه العربي إلى ما في اليهودية من اختلاف أو إلى ما حملوه من قيم وعادات وتقاليد وأفكار.. وكذا فإن اليهود لم ينظروا إلى العرب نظرة جامدة باعتبارهم قوماً متخلفين.. فلم يؤثر اليهود في العرب.. ولا تأثر اليهود بهم، بل إن كلا من الجانبين أثر في الآخر، فأخذ الشعوب بعضها عن بعض من القضايا التي لا يمكن أن ينكرها إلا المعاندون المتعصبون.

وقد كان لليهود تأثير في جزيرة العرب من عدة نواح:

الأولى - تأثير ديني:

فقد نشر اليهود في البلاد التي تركوها في جزيرة العرب تعاليم التوراة "وما جاء فيها من تاريخ خلق الدنيا، ومن بعث وحساب وميزان ونشروا تفاسير المفسرين للتوراة، وما أحاط بها من أساطير وخرافات كالتي أدخلها بعض من أسلم من اليهود مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبه وأضرابهما"[1].

ورأينا أن جملة من العرب قد تهودوا تبعاً لذلك، أما من لم يتهود وتمسك بدين العرب فقد تأثر بعض التأثر بتقاليد اليهودية وقد تحدث عدد من المستشرقين عن أثر اليهود في الجاهلية فزعموا أن لهم أثراً عميقاً فيهم كالختان وشعائر الحج"[2]. وللدكتور محمد فرج دغيم ملاحظة على تأثر العرب باليهودية في بعض شعائر الحج إذ يرى أن اليهود كانوا لا يحجون فكيف يتأثر العرب بهم.

ومن الأمور التي تميز بها يهود جزيرة العرب عن بقية العرب تحريمهم لبعض المأكولات مثل تحريمهم لأكل لحوم الإبل.. وكان هذا التحريم بالذات يشق على العرب مشقة كبيرة إذ إن لحوم الإبل مصدر مهم من مصادر الحياة في الجزيرة العربية التي يصعب أن تتكاثر فيها حيوانات أخرى غير الإبل، بسبب فقرها نسبياً، وقلة وجود الأعشاب والحشائش فيها.

وليس هذا هو الاختلاف الوحيد بين العرب واليهود، فقد اختلفوا عنهم أيضاً في

(1) أمين أحمد، فجر الإسلام، ص 24، 25.
(2) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 566.

عبادتهم، وفي أمور عقائدية أخرى، وفي بعض العادات والمظاهر الخارجية "فكان اليهود مثلاً يسدلون شعورهم أما العرب فكانوا يفرقونها"[1].

وهذا لا ينفي بحال تأثر العرب ببعض الطقوس اليهودية وهذا ما أكده الباحثون العرب أنفسهم يقول جرجي زيدان: "كان لليهود تأثير عظيم على العرب، من حيث الآداب الدينية وطقوسها ؛ فاقتبس العرب منهم أموراً كثيرة كانوا يجهلونها، كالحج والذبائح والزواج والطلاق والكهانة والاحتفال بالأعياد ونحوها، وعلموهم بعض قصص التوراة وفصولاً من التلمود.."[2].

الثانية – تأثير حضاري:

يعزى لليهود الفضل في إدخال بعض الصناعات والحرف والمهن إلى الجزيرة العربية وإن كان هناك اختلاف في السبق إلى مزاولة تلك الصناعات والمهن.. فإنه لا خلاف في أن اليهود زاولوا مهناً ازدراها العرب، ونظروا إليها نظرة فوقية، من ذلك: الزراعة والصناعة "فقد اشتهر اليهود في جزيرة العرب حيث حلوا بمهارتهم في الزراعة كما اشتهروا في يثرب أيضاً بصناعتهم المعدنية كالحدادة والصياغة وصنع الأسلحة"[3].

وكان كل اعتماد اليهود في يثرب عند ظهور الإسلام على التجارة ومعاطاة الربا والزرع وبعض أنواع الصناعة والصياغة وتربية الماشية وصيد الأسماك في أعالي الحجاز على ساحل البحر الأحمر واشتهروا بالاتجار بالبلح والبر والشعير والخمر وكانوا يجلبون الخمر من بلاد الشام وكانوا يبيعون بالرهن، يرهن المشترون بعض أمتعتهم عندهم ليستدينوا منهم ما يحتاجون إليه، وقد روي أن الرسول ﷺ رهن درعاً له عند يهودي من أهل يثرب في مقابل شعير كان له به حاجة شديدة، ومن الصناعات التي اشتغل بها اليهود النسيج وهو من اختصاص نسائهم والصياغة واختص بها بنو قينقاع والحدادة والصناعة[4]. ويدلنا ذلك على أن لليهود مشاركة واسعة في الحياة العملية مع الجاهليين.

(1) المصدر السابق نفسه، ج 6، ص 561.
(2) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مرجع سابق، ص 25.
(3) أمين، أحمد، فجر الإسلام، ص 24.
(4) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 535 وما بعدها.

الثالثة – تأثير لغوي:

هذا النشاط الذي أسلفنا عنه الذكر للجالية اليهودية في شبه الجزيرة العربية في المجالين الحيويين الديني والاقتصادي، وهما مجالان يتعامل فيهما الناس يومياً بالتأكيد لابد أن يكون اليهود قد حملوا معهم بعض ألفاظ عبرانية أدخلوها في لغة العرب.

كما أنهم – لابد – وأن تأثروا ببعض المفردات العربية فأدخلوها في لغتهم.

هذا إذا سلمنا أن اليهود تمسكوا بلغتهم الأم العبرانية فالمصادر التاريخية تخبرنا أن جل اليهود كانوا يتكلمون العربية، بل هم قد تفوقوا فيها فنظموا الشعر وكان منهم الخطباء المفوهون، وقد لاحظ بعض الباحثين ذلك، يقول جواد علي: "ويلاحظ أن يهود جزيرة العرب في الجاهلية لم يحافظوا على يهوديتهم وعلى خصائصهم التي يمتازون بها، ويحافظوا عليها محافظة شديدة، كما حافظوا عليها في الأقطار الأخرى، فأكثر الأسماء في القبائل والبطون والأشخاص اليهود هي أسماء عربية. والشعر المنسوب إلى شعراء منهم يحمل الطابع العربي والفكر العربي.. ولعل هذا بسبب تأثير العرب المتهودة عليهم وكثرتهم بالنسبة إلى من كان من أصل يهودي فأثروا فيهم وطبعوهم بطابع عربي"[1].

وأما سواد يهود الجزيرة فلا أظن أنهم كانوا يتكلمون العبرانية أو اللغة الآرامية، وإنما أرى أنهم كانوا يتكلمون لهجة من اللهجات العربية "ولم يرد في الأخبار ما يفيد أنهم كانوا يتحدثون بالعبرانية بل الذي ورد أن عامتهم لم تكن تعرف تلك اللغة، وأن الخاصة منهم والمزاولين لحرفة الكتابة والسحر كانوا يعرفونها ويكتبون بها"[2].

على أي حال فإن الضرورة الدينية كانت تلزم اليهود بتعلم لغتهم الأم العبرانية، وتعليمها للأجيال التالية حتى يستطيعوا أن يقرءوا كتبهم الدينية وأن يتعلموا شعائرهم الدينية، ولهذا فإن محاولة تفريغ اليهود تماماً من أي علم باللغة العبرانية محاولة غير مستساغة..

وكون غالبية اليهود يتحدثون العربية لا يكون دليلاً كافياً لنفي العبرانية ؛ ومما يدلنا على

(1) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 539.
(2) المصدر السابق نفسه، ج 6، ص 858، 859.

وجود العبرانية أن لها أثراً في اللغة العربية، فقد كان "لليهودية أثر كبير في اللغة العربية فقد أدخلوا عليها كلمات كثيرة لم يكن يعرفها العرب، ومصطلحات دينية لم يكن لهم بها علم مثل جهنم والشيطان وإبليس ونحو ذلك"[1].

وقد لاحظ الباحثون أن هناك ألفاظاً عبرانية لا شك في أصلها وجدت لها سبيلاً إلى عربية الجاهليين بسبب اتصال اليهود بهم واستعمالهم إياها فتأثر بهم الجاهليون وأخذوها منهم، واستعملوها أيضاً فصارت من المعربات خاصة وأن العلاقة بين العرب واليهود اكتسبت بعداً اجتماعاً آخر فقد عاش اليهود في جزيرة العرب معيشة أهلها فلبسوا لباسهم، وتصاهروا معهم، فتزوج اليهود عربيات، وتزوج العرب يهوديات، ولعل كون بعض اليهود من أصل عربي هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج العرب باليهوديات والعكس"[2].

ومن الألفاظ التي دخلت العربية من أصول العبرانية لفظ الكنيس وقد ذكر علماء اللغة "أن الكنيس كلمة معربة من "كنشت" وهي لليهود، وقد أخذ الجاهليون مصطلح "مدراس" من العبرانية عن لفظة "مدراش"، وعُرف علماء اليهود ورجال دينهم بالأحبار جمع حبر، واللفظة معربة عن العبرانية، وكذلك لفظ الرّبّي، وكذلك لفظ الزبور وأصلها العبراني "مزمور"[3].

وقد وردت بعض هذه الألفاظ في الشعر الجاهلي يقول امرؤ القيس:

أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

ويقول:

لمن طلـــل أبصرتــه فشجانـــي كخط زبور في عسيب يمـــان[4]

ويقول أعشى ثعلبة:

وكـــــذاك لا خـيـــــــرٌ ولا شـــــرٌ على أحـــد بـدائـم

(1) أمين، أحمد، فجر الإسلام، ص 24، 25.
(2) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 536.
(3) انظر: جواد علي، المفصل، ج 6، ص 535، ص 550، ص 552.
(4) امرؤ القيس، ديوانه، ص 212.

قد خـــط ذلك فـــي الزبـــــو ر الأوليـــــــات القـدائـــم

ويقول الشماخ:

كما خط عبرانية بيمينه بتيماء حبرٌ ثم عرض أسطـــرا[1]

وينسب للأسود بن يعفر:

سطـــور يهوديين فـــي مهرقيهما مجيدين من تيماء أو أهل مدين[2]

وقد ورد في الشعر الجاهلي ذكر لبعض قصص الأنبياء واخبرنا القرآن عنهم أيضاً، ومن ذلك ورود أخبار داود عليه السلام وصنعه لدرع الحديد، قال لبيد:

ونزعن من داوود أحسن صنعه ولقـد يكـــون بقـوة ونعيـــم
صنـع الحـديـد لحفظـه أســـراده لينال طول العيش غير سروم[3]

وللأعشى:

مـــن نسـج داود يجدي بهـــا علـى أثـر العيـس عيراً وفيراً[4]

وروى لنا النابغة قصة سيدنا سليمان عليه السلام:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهـه ولا أحاشي من الأقوام من أحـــد
إلا سليمـان إذ قـال الإلـــه لـــه قـم في البرية فاحددها عن الفنـــد
وخيس الجن إني قد أذنت لهـــم يبنـون تـدمـر بالصفـاح والعمـد
فمن أطاعك فاخضعـه بطاعتـه كما أطاعك وادللـه على الرشـــد
ومـن عصـاك فعـاقبـه معـاقبـة تنهي الظلوم ولا تعقد على أحد[5]

كما أن اليهود أنفسهم نبغ فيهم شعراء كثيرون بالعربية منهم السموأل بن عادياء وكعب بن سعد القرظي وكعب بن الأشراف وأبو رافع اليهودي.

(1) الأصفهاني، الأغاني، ج 10، ص 180.
(2) المصدر السابق نفسه، ج 8، ص 25.
(3) لبيد، ديوانه، مصدر سابق، ص 98.
(4) الأعشى، ديوانه، ص 111.
(5) النابغة الذبياني، ديوانه، ص 112.

وهذا الشعر المنسوب إلى اليهود لا يختلف في طريقة نظمه، وفي تركيبه ونسقه عن شعر الشعراء الجاهليين. فألفاظه عربية صافية مثل ألفاظ أهل الجاهلية، وأفكاره على نمط أفكارهم.

والسموأل بن عادياء الذي تروي المصادر بعض شعره مشهور بالوفاء بين العرب حتى ضرب به المثل، فقيل أوفى من السموأل، وقد حدثت له في الوفاء قصة شهيرة مع امرئ القيس ابن حجر الكندي رواها في شعره:

وفيت بأدرع الكندي أني ... إذا ما خان أقوام وفيت
وأوصى عاديا يوماً بألا ... تهدم يا سموأل ما بنيت
بنى لي عاديا حصناً حصينا ... وبئرا كلما شئت استقيت[1]

وتُنسب له قصيدة أخرى يحث فيها على مكارم الأخلاق:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلى حسن الثناء سبيل[2]

وفي نسبة هذا الشعر إلى السموأل شك، وإن كان إبراهيم بن عرفة المعروف بنفطويه(ت 324 هـ) قد جمع له ديواناً طبع في بيروت سنة 1909 وأعاد نشر هذا الديوان محمد حسن آل ياسين في بغداد سنة 1955.

5- النصرانية عند العرب:

كما عرف العرب اليهودية، وعاش بينهم اليهود، فإنهم عرفوا أيضاً النصرانية في بلادهم، وإن كانت النصرانية أحدث عهداً من اليهودية بحكم وجودها أولاً، إذ إن اليهودية أسبق تاريخياً في الوجود.

وبما أن النصرانية ديانة تحث على الزهد والتسامح والبعد عن الدنيا فإن الجزيرة العربية كانت مكاناً مناسباً لنساكها الذين آثروا أن يعيشوا بعيداً في الصحراء متنسكين مبتعدين عن

(1) السموأل، ديوانه، جمع نفطويه، ص 21، دار المعارف، بغداد، ط 3، 1963.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 48.

الاضطهاد الديني، والصراعات المذهبية بين الكنيسة الرسمية التي ترعاها الإمبراطورية الرومانية وبقية المذاهب المسيحية.

"فإذا ما كانت اليهودية قد دخلت الجزيرة العربية بالهجرة، والتجارة فإن دخول النصرانية إليها كان بالتبشير وبدخول بعض النساك والرهبان إليها للعيش فيها بعيداً عن ملذات الدنيا"[1]، ولأن المبشرين النصرانيين كانوا يحملون صفات طيبة، ولا يقومون بأي نشاط معاد للعرب ومسالمين.. بالإضافة إلى ما حملوا من علوم فكرية معهم، فقد وجدوا قبولاً أكثر من العرب، ويخبرنا الجاحظ أن النصرانية كانت فاشية في العرب: "كانت النصرانية فاشية في العرب إلا ما كان من مضر فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ولم تفش فيها النصرانية إلا ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العّباد، فإنهم كانوا نصارى.. ولم تعرف مضر إلا دين العرب ثم الإسلام، وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها على لخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقضاعة وطيء ثم ظهرت في ربيعة، فغلبت على تغلب وعبد القيس، وأفناء بكر ثم في آل ذي الجدين خاصة"[2]. وقد رصد غير واحد من علماء العربية القدامى انتشار النصرانية في بلاد العرب فقد "ذكر ابن قتيبة الدينوري أن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وقال اليعقوبي إن من تنصر من أحياء العرب هم قوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث بن أسد وورقة بن نوفل بن أسد ومن بني تميم بنو امرئ القيس بن زيد مناة ومن ربيعة بنو تغلب، ومن اليمن طيء، ومذحج وبهراء وسليم وتنوخ وغسان ولخم"[3].

ويبدو أن النقاط الحدودية الشمالية للجزيرة العربية كانت المصدر الرئيس الذي انتقلت منه النصرانية إلى داخل الجزيرة العربية "فقد كان جميع البدو في الشمال على اتصال وثيق بالسكان الآراميين الذين استوطنوا تلك الديار والذين لونت النصرانية حضاراتهم منذ زمن طويل تلويناً تاماً، وليس من شك في أن بلاد العرب الداخلية وخاصة مدن الحجاز التجارية لم تكن تجهل كل الجهل تعاليم المسيحية، وتقاليدها بسبب اتصالها الدائم بقبائل الشمال،

(1) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 587.
(2) الجاحظ، رسائل الجاحظ، رسالة الرد على النصرانية، ص 15.
(3) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 590.

وليس من شك أيضاً في أن الرهبان الذين انتشرت صوامعهم من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء كان لهم أثر كبير في تعريف العرب النصرانية"[1].

أما المناذرة فتخبر الروايات عنهم بتنصر بعض ملوكهم، أما الغساسنة فقد تنصروا جميعهم.. وأهم مواطن النصرانية في الجزيرة العربية كان "نجران" وكانت مدينة خصبة عامرة بالسكان وكانت قريبة من الطريق التجاري إلى الحيرة"[2].

ونجران هي أشهر مدن النصرانية، ومعقلها وموئلها في بلاد العربَ، وقدَ بنيت بها كنيسة كبيرة أطلقوا عليها كعبة نجران، تطاولاً إلى الكعبة المشرفة.. ورووا أن بناتها هم بنو عبد المدان الحارثي وكانت "كعبة نجران قبة من أدم من ثلاثمئة جلد على نهر نجران، وكان إذا نزل بها المستجير أجير أو الخائف أمن أو طالب حاجة قضيت أو لمسترفد رفد، وقد ذكرها الأعشى في قوله:

وكعبة نجران حتم عليك ... حتى تناخي بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح ... وقيساً وهم خير أربابها"[3]

ولم يقتصر وجود النصارى على نجران فقط بل إن مكة أيضاً كان فيها عند ظهور الإسلام جماعة من النصارى وهم من الغرباء النازحين إليها لأسباب منها الرق والتبشير والاتجار والحرفة[4].

وقد ورد ذكر النصرانية في كثير من شعر العرب، فقد كان منهم شعراء مجيدون أيضاً، ومنهم عدي بن زيد وهو الذي يقول:

سعى الأعداء لا يألون شرا ... عليك ورب مكة والصليب[5]

(1) كارل بروكلمان، العرب والإمبراطورية العربية، النص مأخوذ من: د. حسين الحاج حسن، حضارة العرب في الجاهلية، ص 29.
(2) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 26.
(3) د. حسين الحاج حسن، حضارة العرب في الجاهلية، ص 180.
(4) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 607.
(5) شيخو، الأب لويس، شعراء النصرانية، ص 451، بيروت، 1977.

ولحاتم الطائي:

وما زلت أسعى بين نـاب ودارة بلحيـان حتـى خفت أن يتنصرا[1]

وقال جابر بن حني:

وقـد زعمـت بهـراء أن رماحنـا رماح نصارى لا تخوض إلى دم[2]

وزعم الأب شيخو أن النصرانية هي ديانة جميع الشعراء الجاهليين وتمحل لذلك أيما تمحل في كتابه شعراء النصرانية والذي لا شك فيه أن للنصرانية كما لليهودية أثراً ما على شعراء العرب، ربما كان هذا الأثر مباشراً باعتناق العربي لليهودية أو النصرانية أو غير مباشر عبر اقتباسه لشذرات من الثقافة الدينية اليهودية أو النصرانية فترد في شعره، ولذا نجد مؤرخي العرب عندما يذكرون النصرانية وأثرها في العرب، يوردون أشعاراً للأعشى وحاتم طيء مثلاً ثم يوردون للشاعرين ذاتهما أبياتاً عند ذكرهم لليهودية، وأيضاً عند ذكر الوثنية أو المجوس أو الصابئة أو غيرهم فورود بعض الأسماء أو المصطلحات أو العقائد لا يعد كافياً بالضرورة إلى تسمية دين الشاعر بقدر ما يدلنا على تأثره بالثقافات الدينية التي كانت موجودة حوله.

الأثر الديني للنصرانية:

كان للنصرانية إذن أثر ديني مباشر باعتناق كثير من العرب للنصرانية وتدينهم بها بحكم استجابتهم لدعوات المبشرين المسيحيين الذين جابوا الجزيرة العربية طولاً وعرضاً، ويعلل الجاحظ اعتناق العرب للنصرانية بتعليل فيه شيء من السخرية بالعرب أو السخرية بغيرهم وكلامه يحتمل كل الأوجه: "ومما عظم النصارى في قلوب العوام وحببهم إلى العظام أن منهم كتاب السلاطين، وفراش الملوك، والأطباء والعطارين والصيارفة، ولا يكون اليهودي إلا صباغة، أو دباغاً أو قصاباً، فلما رأت العوام اليهودية والنصارى كذلك توهمت أن دين اليهود في الأديان كصناعتهم في الصناعات"[3].

(1) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج 18، ص 205.
(2) شيخو، شعراء النصرانية، مرجع سابق، ص 195.
(3) الجاحظ، رسالة الرد على النصارى، ص 17.

وقد كان لنصارى العرب تنظيمهم الخاص بدور عبادتهم وبالتعليم والإرشاد، وأشرنا آنفاً إلى كنيسة نجران التي سماها العرب كعبة نجران والتي كان لها نظام سياسي وإداري خاص تخضع له، وفي اليمن كانت للنصارى كنائس أخرى خاصة بعد غزو الأحباش، ومن أشهرها كنيسة عظيمة بُنيت في صنعاء هي كنيسة القليس وهي كنيسة أبرهة، والقليس من أصل "أكليسيا" اليوناني بمعنى كنيسة[1].

وكما انتشرت النصرانية في بلاد العرب فقد انتشرت بمذاهبها، واختلافاتها وصراعاتها، وأشهر المذاهب النصرانية في البلاد العربية اثنان: المذهب النسطوري، والمذهب اليعقوبي، ومن النساطرة تعلم عرب العراق وكان مركزها الرئيس في الحيرة، ومن الحيرة تسربت النصرانية إلى الجزيرة العربية، وتعلم نصارى العرب، ثم دخلت النسطورية اليمامة، وعمان واليمن"[2].

بينما انتشر المذهب اليعقوبي بين عرب الشام "وزعموا أن الحارث بن جبلة تغلب في مناظرة دينية جرت له مع البطريرك أفرام وأفحمه في جوابه"[3].

ولعل هذا الاختلاف المذهبي بين نصارى عرب الحيرة ونصارى عرب الشام ؛ وهم أبناء عمومة يفسر لنا النزاع الطويل الذي نشب بينهم واستمر حتى ظهور الإسلام.

ويزعم الأب شيخو أن الرسومات التي كانت تزين جدار الكعبة هي دليل على شيوع النصرانية في مكة نفسها[4]، وهذا تمحل لا نوافق عليه.

تأثير النصرانية الحضاري:

اشتغل النصارى القادمون إلى الجزيرة العربية بعدة حرف ومهن منها التجارة والنجارة والحدادة، وسائر صنوف الصناعة، وفي مركز وجودهم الرئيس نجران اشتغل نصارى العرب بالزراعة، وكانت فيها بعض المهن من مثل "صنع الأنسجة الحريرية، والمتاجرة في الجلود وفي صنع الأسلحة، وإليها تنسب الحلل اليمانية التي تغنى بها الشعـراء"[5].

(1) انظر: جواد علي، المفصل، ج 6، ص 619.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 184.
(3) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 592.
(4) شيخو، شعراء النصرانية، ص 53.
(5) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 26.

وتخبرنا المصادر أن النصارى وصلوا بتجارتهم وبضاعتهم إلى مكة المكرمة، وبقوا فيها حتى ظهور الإسلام، حتى أن النبي ﷺ اتهم بأنه يتعلم من أحد نصارى مكة كما يخبرنا القرآن الكريم: { ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين }[1]. خاصة وأن نصارى الجزيرة من النساطرة كانوا يتداولون علوم اليونان من فلسفة ومنطق "وقد ترجموا كثيراً من الكتب اللاهوتية والفلسفية من اليونانية، كما اشتهروا بعلوم الطبيعة والطب وكان من رجال النساطرة أطباء في بلاد فارس، ومنهم كثيرون انتشروا في الجزيرة، وعلى العموم فقد كان هؤلاء النساطرة هم الصلة بين اليونان والعرب"[2].

وما تمتاز به النصرانية حقاً هو اهتمامها بالجانب الفكري عن طريق تعليمها العرب القراءة والكتابة وممن تعلمها ورقة بن نوفل والنضر بن الحارث وأمية ابن أبي الصلت وغيرهم.

التأثير اللغوي:

وعلى صعيد اللغة، فقد وجدنا في اللغة العربية كثيراً من الألفاظ التي ترجع إلى أصول نصرانية، وشاعت هذه المصطلحات خاصة بين عرب الشمال الذين جاوروا مملكة الروم في الشام، والهلال الخصيب "وقد سكن قوم من إياد السواد والجزيرة، وسكن قوم منهم بلاد الشام فخضعوا للغساسنة والروم، وتنصروا وهم جملة القبائل التي لم يأخذ علماء العربية اللسان عنها لمجاورتها أهل الشام ولتأثرها بهم وهم قوم يقرءون ويكتبون بالسريانية، فتأثروا بهم لروابط الاحتكاك والثقافة والدين"[3].

ردَّ علماء اللغة العربية للغة إياد، ومن جاورها من القبائل يعطينا مؤشراً واضحاً لدرجة تأثر لغة القبائل كافة بالألفاظ الأعجمية ولشدة تأثرها بمفرداتها.. وهذا أمر ليس بمستغرب، فقد رأينا علماء الأدب أيضاً يتهمون شعر عدي بن زيد العبادي بالضعف، وعلى كل حال فإن الثقافة المسيحية قد أدخلت على اللغة العربية ألفاظاً وتراكيب لم تكن تعرفها، فهم يذكرون أن أمية بن أبي الصلت أول من علم العرب "باسمك اللهم" وقس بن ساعدة أول من قال "أما

(1) سورة فصلت، الآية(43).
(2) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 29.
(3) جواد علي، المفصل، ص 594.

بعد"، وكان أمية يستعمل في شعره ألفاظاً لا تعرفها العرب منها "السلطيط" و "التغرور".

وقوله: (قَمر وساهور يسل ويغمد)[1]

وما دمنا قد تحدثنا عن شعراء النصرانية فيجدر بنا أن نعرج إلى ذكر أشهرهم، ومنهم عدي بن زيد العبادي وأمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة الإيادي وهؤلاء لهم مسحة خاصة في شعرهم عليها طابع الدين ومتأثرة بتعاليمه تزهد في الدنيا وشؤونها وتدعو إلى النظر في الكون والاعتبار بحوادثه.

ومن الألفاظ النصرانية المعربة "البطريق"، وردت في شعر لأمية بن أبي الصلت:

من كـــل بطريق لبطريــق نقـــي الـوجـــه واضــح

وأصلها يوناني مأخوذة من "بثريارخيس" ومعناه أبو الآباء، ولفظة مطران مأخوذة من متروبوليتيس بمعنى مختص بالعاصمة أو المدينة وكذلك الأسقف مأخوذة من اليونانية "ابسكونوس" ومعناها كاهن أو شيخ، ولفظة شماسي معربة من السريانية وتعني الخادم"[2].

ومن الألفاظ التي وردت في الشعر الجاهلي: قول امرئ القيس:

تضيء الظلام بالعشاء كأنهـا منـــارة ممسـى راهـــب متبتـــل

وقوله:

كأنه راهب في رأس صومعة يتلو الزبور ونجم الصبح ما طلعا[3]

وقال النابغة الذبياني:

سيبلغ عذراً أو نجاحاً من امرئ إلـى ربـه رب الـبـريـة راكــع[4]

وقال مزرد بن ضرار الذبياني:

كأن شعاع الشمس في حجراتها مصابيح رهبان زهتهـا القنـادل

(1) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص 18.
(2) انظر: جواد علي، المفصل، ج 6، ص 636 وما بعدها.
(3) ديوانه، ص 115، ص 205.
(4) ديوانه، ص 75.

وقال ابن مقبل:

صـوت النواقيس فيه ما يفرطه　　أيدي الجلاذى جون ما يغضينا[1]

وقول النابغة الذبياني:

لو أنها عرضت لأشمط راهب　　عبـد الإلــه صــرورة متعبــد

لرنا لبهجتها وحسـن حديثهـا　　ولخاله رشداً وإن لـم يـرشــد

ورووا لعدي بن زيد قصيدة يشرح فيها تعاليم النصرانية مطلعها:

اسمع حديثاً لكي يوما تجاوبه　　عن ظهر غيب إذا ما سائـل سـألا

وهي تشبه النظم التعليمي الذي شاع في العصر العباسي، وفيها شك كبير، وزعم شيخو في كتابه "شعراء النصرانية" أن روح النصرانية كانت شائعة بين شعراء العرب، وحاول إثبات ذلك في كتابه المشار إليه وفيه كثير من التمحلات والتعليلات الواهية التي لا تقوم على أدلة وأسانيد علمية صحيحة.

6- الأساطير:

عندما يجد الإنسان نفسه وحيداً في ظلام الصحراء الدامس وفي فراغها الرهيب، وعمقها اللامتناهي، يسمع أصواتاً لا يدري مصدرها، ويودع أشخاصاً ثم لا يعودون، قلبه الخائف المرتجف يرسم له كثيراً من الخيالات القلقة التي تبحر في عالم المجهول وغير المرئي..

الجـن: كانوا يعتقدون بوجود الجن وينسبون إليهم خوارق الأعمال وكل ما هو مبدع، ومن ذلك أنهم جعلوا لكل شاعر تابعاً من الجن، يعلمه فن القول.. أما إذا دخلوا وادياً فإنهم يتعوذون بعظماء الوادي من صغاره، وفي ذلك يقول الشاعر:

أعيذ نفسي وأعيذ صحبي　　مـن كل جنيّ بهذا النقـب

وقال أحد الشعراء في ذلك أيضاً:

(1) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 949، والجلاذي هو خادم البيعة.

قد بت ضيفاً لعظيـــم الـوادي
المانعـي من سطـوة الأعـادي
راحلتي في جـــــاره وزادي[1]

بل كانوا يذهبون إلى أكثر من ذلك فمنهم من عبد الجن وورد ذلكَ في القرآن الكريم {قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون }[2].

وربما تخيل الشاعر والمسافر في الصحراء أن الجن تأوي إلى ناره وتخاطبه، كما قال أحدهم:

أتوا ناري فقلت منون أنتـــــم فقالـوا الجنُّ قلت عموا ظلامـا[3]

وربما قامت علاقات جيدة بين الإنسان الجاهلي، والجن، تصل إلى حد المصاهرة والخلفة، والمصاهرة دعت العرب إلى معرفة أنساب الجن، وفروعهم، وقبائلهم، فذكروا بعضاً منها، وهجوا بعضاً كعادتهم في أنفسهم، قال علباء بن أرقم:

يـا قاتـل اللـه بنـي السعـــــلاة عمرو بن يربوع شرار النـــــات[4]

ويبدو أن للتوراة أثراً في معرفة العرب بجن سيدنا سليمان، وخدمتهم له، كما في قول الأعشى:

وسخر من جن الملائك تسعـــة قيـامـاً لديـه يعمـلـــون محـاربـا[5]

وقال النابغة الذبياني:

إلا سليمـان إذ قـــال الإلـه لـــه قـم في البريـة فاحددهـا عن الفنـد
وخيس الجن إني قد أذنت لهـــم يبنـــون تـدمـر بالصفـاح والعمـــد
فمـن عصـاك فعـاقبـه معـاقبـة تنهي الظلوم ولا تقعد على ضمد[6]

الغول: من شرار الجن، ومن أشدهم خطراً على الجاهليين "وهم يرون أن من الممكن

(1) الألوسي، بلوغ الأرب، مصدر سابق، ج 2، ص 58.
(2) سورة سبأ، الآية(41).
(3) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج 18، ص 205.
(4) الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ج 1، ص 186، القاهرة، 1990.
(5) الأعشى، ديوانه، ص 186.
(6) النابغة، ديوانه، ص 112.

قتل الغول بضربة سيف واحدة أما إذا ضربت مرة ثانية فإنها تعيش ولو من ألف ضربة"[1].

ويزعمون أن الغول تتلون ألواناً، كما قال كعب بن زهير:

ولا تـدوم على حـال تكون بهـا كمـا تلـون في أثـوابهـا الغــول[2]

وقول عباس بن مرداس السلمي:

أصابت العام رعلا غول قومهم وسط البيوت ولون الغول ألوان[3]

الشق: وهو نوع من الجن شكله على نصف إنسان، وهو يعرض للرجل المسافر وحده فيهلكه(4).

الهاتف: وهو صوت يسمع من بعيد يخبرهم بأخبار لا يعرفونها، فيجدون صحتها فيما بعد، وفي قصة الهاتف قصص وأخبار كثيرة، من ذلك الهاتف الذي نعى عبد الله بن جدعان فقال:

لقد هلك الفياض غيث بنى فهر وذو الباع والمجد الرفيع وذو الفخر[5]

ولإيمان العرب بخطر قوى الطبيعة عليهم، وخاصة غير المرئية منها فقد تفننوا في إقامة الرقى والعزائم للوقاية من الجن، والتحصن من شرورهم، ومن ذلك أنهم يعلقون النفرة والنفرة شيء ينفر من الشخص الذي تعلق عليه، كأن ينجس من يخشى عليه العين وتعلق عليه نجاساً أو عظام موتى، أو غير ذلك وربما ذبحوا للجن بعض ذبائح، أما الرقى فهي لمعالجة الحمى والصداع، والنظرة ولدغات العقارب والحيات[6].

7- أوابد العرب:

والأوابد: هي بعض العادات أو الخرافات أو الديانات التي كانت مشهورة عند العرب، ويتعلق أغلبها بأمور روحية، وسنعرض لبعضها باختصار شديد، فمنها:

(1) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 728.
(2) كعب بن زهير، ديوانه، ص 18.
(3) الجاحظ، الحيوان، ج 6، ص 214.
(4) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 732.
(5) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج 6، ص 202.
(6) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 748.

الكهانة: وهي التنبؤ بالغيب، وعندما جاء النبي ﷺ بدعوته، رماه المشركون بالكهانة، فرد عليهم القرآن بقوله تعالى: { فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون }[1].

وللكهان تابعون من الجن يسترقون السمع، ويلقون الأخبار إلى الكاهن فيزيدون في الخبر مائة كذبة كما ورد في الحديث الشريف..[2].

وللجاهليين اعتقاد كبير في الكهانة يروون تنبؤاتهم ويلجأون إليهم عندما يشكل عليهم أمر، وللكاهن حلوان يُعطاه نظير كهانته، وقد نهى الإسلام عن أكله، ومن أشهر الكهان في الجاهلية شق وسطيح وأوس بن ربيعة ونفيل بن عبد العزى وكهان آخرون كثيرون.

وفي النساء أيضاً كاهنات مشهورات، يأتي إليهن الناس من كل حدب، منهن: طريفة الكاهنة، وزبراء وسلمى الهمذانية وسجاح وفاطمة بنت مر الخثعمية[3].

العرافة: والعراف هو من ينبئك عن الماضي، كأن يعلمك بالشيء المسروق أو مكان الضالة أو نحو ذلك، وربما شفي من بعض الأمراض، ويعتمد العراف في عرافته على خط الرمل، يخط خطوطاً ثم يهمهم بكلمات مسجوعة يخبرك فيها بحاجتك[4].

ومن أشهر العرافين في الجاهلية رباح بن عجلة المشهور بعراف اليمامة والذي يقول فيه عروة بن حزام:

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني[5]

القيافة: وهي تتبع أثر الشيء ومكانه في الرمال حتى يوصل إليه، والقيافة علم قائم على التجربة، وعماده أمور مادية ملموسة، ولا علاقة له بالروحانيات والتنبؤ بالغيب.

وعندهم أيضاً الحازر، وهو من يحزر الأشياء، وربما كانت في معنى القيافة.

---

(1) سورة الطور، الآية(29).

(2) رواه مسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، انظر مسلم النيسابوري، مسلم بن الحجاج، الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ج 4، ص 1750، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.

(3) انظر: جواد علي، المفصل، ج 6، ص 767، 770.

(4) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 777.

(5) الجاحظ، الحيوان، ج 2، ص 105.

الفراسة: وهي معرفة الإنسان من خلال شكله ومنظره، والاستدلال بهما على طبائعه، وصفاته، وهي من الأشياء الجائزة إلا أنها لا ترقى إلى اليقين في نظر الشريعة، وإن كان أغلب آرائها صادقة عندما تجد متفرساً ماهراً.

العيافة: وهي التنبؤ بالغيب عن طريق ملاحظة حركات الطيور والحيوانات ودراسة أصواتها وقراءة أعظمها "كعظم الكتف مثلاً".

وقد اشتهر بها بنو أسدٍ وبنو لهب، وفي ذلك يقول الشاعر:

خبيرٌ بنـو لهبٍ فلاتـك ملغيـاً مقالة لهبـي إذا الطير مرّت[1]

الأزلام: وهي سهام تكتب عليها عبارات من قبل: أمرني ربي، نهاني ربي، وربما جعلوا بعضها غفلاً عن الكتابة، وكانوا يستقسمون بها فإذا أرادوا أمراً ضربوها فأي سهم خرج منها ائتمروا بأمره.

الطيـرة: وكانوا يتشاءمون من بعض ظواهر الطبيعة تشاؤماً شديداً لدرجة أن أحدهم ربما همّ بالسفر فيرى شيئاً يتطير منه فيرجع.. وهكذا في كل شؤون حياتهم. وأكثر العاشقون خاصة من التطير ببعض الظواهر الطبيعية التي أعقبها فراق أحبابهم.

قال النابغة:

زعـم البـوارح أن رحلتنـا غـداً وبذاك تنعاب الغراب الأسـود[2]

وقال عنترة:

ظعـن الذيـن فـراقهـم أتـوقـع وجرى ببينهـم الغـراب الأبقـع
حرف الجناح كأن لحيي رأسـه جلمـان بالأخبـار هـش مـولـع
فـزجـرتـه ألا يفـرخ بيضـه أبـداً ويصبـح خـائفـاً يتفجـع
إن الـذيـن نعبـت لي بفـراقهـم هم أسهروا ليلي التمام فأوجعوا[3]

(1) السيوطي، عبد الرحمن، شرح شواهد المغني، تحقيق: محمد محمود بن التلاميذ الشنقيطي، ج 6، ص119 دار الحياة، بيروت، د.ت.
(2) الذبياني، النابغة، ديوانه، مصدر سابق، ص 16.
(3) عنترة بن شداد العبسي، ديوانه، ص 117، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، د.ت.

وأكثر الشعراء من التطير بالغراب، وسموه غراب البين، وجعلوه رمزاً لكل شؤم، قال حسان بن ثابت:

وبيّن في صوت الغراب اغترابهُم عشيةَ أوفى غصنُ بانٍ فطرّبا[1]

ومن العرب من أنكر الطيرة، وحارب التشاؤم، فلم يعبأ بكل ذلك، قال مرقش ابن سدوس:

إني غدوت وكنت لا أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم
فكذاك لا خير ولا شرّ على أحد بدائم[2]

ويقول آخر في مدح سيد عربي:

وليس بهياب إذا شدّ رحله يقول عداني اليوم واق وحاتم
ولكنه يمضي على ذاك مقدما إذا صُد عن تلك الهنات الختارم[3]

وكان النابغة الذبياني من المتطيرين، خرج مع زبان بن سيار يريدان الغزو، فبينما هما يريدان الرحلة، إذ نظر النابغة فإذا على ثوبه جرادة تجرد ذات ألوان فتطير، وقال: غيري الذي خرج في هذا الوجه، فلما رجع زبان من تلك الغزوة سالماً قال:

تخبّر طيره فيها زيادٌ لتخبره، وما فيها خبير
أقام كأن لقمان بن عادٍ أشار له بحكمته مشير
تعلم أنه لا طير إلا على متطير وهو الثبور
بلى شيءٌ يوافق بعض شيء أحايينا وباطله كثير[4]

وقال لبيد بن ربيعة:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع[5]

وعلى العكس من ذلك كانوا يتفاءلون ببعض الأشياء كالتيامن في الطريق وغيره.

(1) حسان بن ثابت، ديوانه، مصدر سابق، ص 48.
(2) الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 436.
(3) المصدر السابق نفسه، ج 3، ص 449. والخترم: الرجل المتطير، انظر: اللسان، مادة خترم، والبيت بعينه هناك منسوب لخثيم بن عدي.
(4) الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 447.
(5) لبيد بن ربيعة، ديوانه، مصدر سابق، ص 121.

8- الأخبار والتاريخ:

اهتمّ العرب قديماً بالأخبار والتاريخ لعدة اعتبارات وأسباب منها:

أ- حفظ كيان القبيلة بذكر ماضيها المجيد، وإشاعة جو من الحماسة والشهامة وعلو الهمة بين أجيال المستقبل في القبيلة بأن تحفظ لهم أخبار أسلافهم الأول الأمجاد، فيحتذوا حذوهم، ويسيروا على منوالهم، فتبقى القبيلة بذلك محافظة على قوتها ومركزها بين القبائل الأخرى. كما كان التاريخ والأخبار مادة لحفظ نسب القبيلة، وربطها بأفضل السلالات، والنسب - كما تعلم - شيء مقدس عند العربي فبنسبه يفاخر، ولا يرضى أن يكون وضيعاً، ولذا يحاول أن يضع عبر روايات تاريخية قديمة مجداً غابراً لسلالته.

ب- معرفة حساب السنين، وما يترتب على ذلك من ضبط المعاملات، وسداد الديون، ومعرفة الأعمار.. وغير ذلك.

ج- في التاريخ والأخبار مادة غنية للقصص، وهي جزء من آدابهم، إذ إن النفوس ترتاح إلى سماع الأخبار والقصص وبها يتعلم الأطفال والكبار المكارم وفضلها، ويعظمون الكرماء ويسيرون على منوالهم.

لـولا مقـال زهير في قصـائـده ما كنت تعرف جوداً كان في هرم[1]

ومع ذلك فإن للعرب اتصالاً وثيقاً بأخبار الأمم السابقة، ومن المؤرخين من بالغ في تقدير تأريخ العرب للأمم السابقة عليهم، كما قال الهمذاني في كتابه الوشي المرقوم: "لم يصل أحد إلى خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب، وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة، وأخبار أهل الكتاب، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس، وكذلك من سكن الحيرة، وجاور الأعاجم، عرف أخبارهم، وأيام حمير وسيرها في البلاد، وكذلك من سكن الشام خُبر بأخبار الروم، وبني إسرائيل واليونان، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند وفارس، ومن سكن اليمن عرف أخبار الأمم جميعاً، لأنه كان

(1) الألوسي، بلوغ الأرب، مصدر سابق، ج 3، ص 210.

في ظل الملوك السيارة، والعرب أصحاب حفظ ورواية"[1].

ونجد فعلاً في أشعار العرب أخباراً عن الأمم السابقة كما ورد في شعر أعشى ثعلبة عن ذي القرنين:

والصعب ذو القرنين أمسى ثاوياً بالحنو في جدث هناك مقيم[2]

وقال الربيع بن ضبيع:

والصعب ذو القرنين عمر ملكه ألفين أمسى بعد ذاك رميما[3]

وكما ورد في شعر النابغة الذبياني ذكر سليمان عليه السلام:

إلا سليمان إذ قال إلاله له قم في البرية فاحددها عن الفند[4]

ولهم في أشعارهم قصص عن لقمان الحكيم، وابنه لقيم بن لقمان.

قال النمر بن تولب:

لقيم بن لقمان من أخته فكان ابن أخت له وابنما
ليالي حُمّق فاستحصنت عليه فغرّ بها مظلما
فغر بها رجل محكم فجاءت به رجلا محكما[5]

ويبدو أن القصص كان شيئاً مهماً في حياة العربي القديم، بل ربما كان ضرورة اجتماعية "فأسمار الليل التي كان البدو الرحل يتسامرون بها، ومجالس أهل القرى والحواضر، وما كان يروى فيها من أخبار وأحاديث تاريخية وجغرافية، كل ذلك جعل لفن الحكاية أهمية خاصة إذ لا يقطع الوقت الطويل إلا مثل هذا الفن المثير المنشط للخيال والروح"[6].

(1) عن الألوسي، بلوغ الأرب، مصدر سابق، ج 3، ص 213.
(2) المصدر السابق نفسه، ج 3، ص 211.
(3) الألوسي، بلوغ الأرب، مصدر سابق ج 3، ص 212.
(4) النابغة الذبياني، ديوانه، مصدر سابق، ص 112.
(5) الألوسي، بلوغ الأرب، ج 2، ص 213، 214.
(6) إسماعيل، د. عز الدين، المكونات الأولى للثقافة العربية، ص 125، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الثانية، 1996.

والواقع أن الشعب العربي ظل دائماً متعلقاً بشخصية البطل كدأبه منذ العصور القديمة "وقد حاول أن يختار من شخصيات الأبطال نماذج يصوغ فيها كل همومه وكل مطامحه وآماله"[1].

ونظراً لتعدد وظائف التاريخ في الحياة اليومية العربية من التسلية، ومن إقامة الفرد النموذج، كما أشار آنفاً د. عز الدين إسماعيل ومن دور ترفيهي مسل، فإن التاريخ العربي لم يكن تاريخاً صادقاً موضوعياً إلا ما يتعلق بالأنساب.

"فقد كانت للعرب معرفة بأنسابهم بالغة الدقة، فمعرفة النسب، كانت تمثل لدى العربي في الجاهلية لوناً من التاريخ الاجتماعي"[2].

وقد شاب التاريخ العربي كثير من الخرافات والأساطير من مثل ما يروونه عن زمن الفطحل وهو الزمن الذي كانت فيه السِّلام " الحجارة " رطباً، كما يرويه لنا رؤبة بن العجاج:

تسألـني عـن السنين كم لـي ... فقلت لو عمرت عمر الحسـل
أو عمر نوح زمن الفطحـــل ... والصخـر مبتل كطين الوحـل
أو أنني أوتيـت علـم الحُكل ... علـم سليـمـان كـلام النمـــل
كنت رهين هرم أو قتل[3]

وهو زمن كانت الأشياء فيه على كل حال - تتكلم كما يقول أمية بن أبي الصلت:

وإذ هم لا لبـوس لهـم عراة ... وإذ صم الصلاب لهم رطـاب
بآيـة قام ينطـق كـل شـــيء ... وخـان أمانـة الديـك الغراب[4]

وربما يكون من الخطأ أن ننظر إلى هذه الأساطير نظرة استهزاء وسخرية، فمن غير المعقول أن يكون رواتها حملوها على محمل الجد، وإنما أرادوا ضرب الأمثال واستخلاص الرموز بصورة خرافية إبداعية، تنتج أثراً أكبر في نفوس المتلقين.

(1) المرجع السابق، ص 156.
(2) عز الدين إسماعيل، المكونات الأولى، مرجع سابق، ص 164.
(3) الألوسي، بلوغ الأرب، مصدر سابق، ج 3، ص 220.
(4) المصدر السابق نفسه، ج 3، ص 221.

وممن دعا إلى هذا الرأي الثعالبي إذ يقول: "ولا يبعد أن يكون القوم لما رأوا الحكماء قصدوا استعطاف القلوب إلى الحكمة، فوضعوا أمثالاً ووشحوها بعض الهزل وأدرجوا الجد في أثناء المزح ليخف عن القلوب احتمالها، ويسرع إليها التفاتها"[1].

وكان العرب يؤرخون بالأحداث العظيمة التي تقع في ديارهم كموت رئيس أو حادث عظيم أو معركة كبيرة، فقد كانوا قديماً يؤرخون بنار إبراهيم عليه السلام، ثم أرخوا بموت كعب بن لؤي، وأرخوا بعام الخنان، وهو عامٌ عمّ العرب فيه الوباءُ، قال النابغة الجعدي:

فمن يك سائلاً عنى فإني ... من الشبان أيام الخنان

مضت مائة لعام ولدت فيه ... وعشر بعد ذاك وحجتان[2]

وأرخت قريش بموت هشام بن المغيرة المخزومي لجلالته فيهم قال شاعرهم:

وأصبح بطنُ مكة مقشعراً ... كأن الأرض ليس بها هشام[3]

ثم أرخوا أخيراً بعام الفيل إلى أن أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ووضع للمسلمين التاريخ الهجري.

أما تاريخ العرب أنفسهم، وذكر أيامهم ومآثرهم وحروبهم فحدث ولا حرج، وكتب التاريخ القديم ملأى بأيامهم.

كيوم بعاث، ويوم حليمة، ويوم الزويرين، ويوم شعب جبلة، وأيام الفجار ويوم ذي قار، وحرب داحس والغبراء.. وغيرها والظاهر مع ذلك "أن أغلبية أهل الجاهلية لم تكن عندهم كتب مدونة في تاريخهم، ولم تكن عندهم عادة تدوين الحوادث، وتسجيل ما يقع لهم في كتب وسجلات بل كانوا يتذاكرون أيامهم وأحداثهم، وما يقع لهم ويحفظون المهم من أمورهم مثل الشعر حفظاً، ولما كانت الذاكرة محدودة الطاقة.. ضاع كثير من الأخبار"[4].

(1) نقلاً عن: الألوسي، بلوغ الأرب، مصدر سابق، ج 3، ص 221.
(2) المفصل، ج 4، ص 314.
(3) الألوسي، بلوغ الأرب، مصدر سابق، ج 3، ص 214، 215.
(4) جواد علي، المفصل، ج 1، ص 118.

وفي صدر الإسلام وأول عهد الدولة الأموية اشتغل كثير من العرب وغيرهم بتدوين التاريخ العربي، وممن اشتهر بتتبع أخبار ما قبل الإسلام عبيد بن شرية الجرهمي ووهب بن منبه ومحمد بن السائب الكلبـي وأبو عبيدة معمر بن المثنى وغيرهم[1].

وعلى كل حال، فإننا لا نستطيع أن نقول: "إن العصر الجاهلي قد عرف التاريخ والمؤرخين، ولكنه عرف قدراً كبيراً من مادة التاريخ تتمثل في الأخبار والروايات"[2].

9- اللغة:

اللغة العربية هي معجزة العرب، والقالب الذي صاغ حضارتهم ورقى فكرهم، فبقدر ما كثفت الأمم جهودها نحو النهوض بالصناعات والإعمار والبناء، بقدر ما كثف العرب جهودهم للارتقاء بلغتهم وتهذيبها، والبلوغ بها نحو الكمال. ولأن العرب أمة كلامية تعشق الكلام وتعرف جيده من رديئه فقد جاءت معجزته ﷺ (القرآن الكريم) كلاماً عجزوا عن الإتيان بمثله، واللغة العربية هي إحدى اللغات السامية المشهورة الباقية إلى يومنا هذا، وتمتاز اللغات السامية بعدة مزايا، منها كما يقول د. محمد عبد المنعم خفاجي:

1- كثرة تصاريفها.
2- أغلب الكلمات فيها ترجع إلى أصل ثلاثي الحروف.
3- كثرة اشتقاق صيغ متعددة من المادة الواحدة[3].

ويبدو أن اللغة العربية بوضعها الحالي "لغة قريش" لم تكن سائدة قبل ظهور الإسلام في كل الجزيرة العربية، فإن لهجة أهل اليمن الحميرية كان فيها اختلاف عن باقي اللهجات العربية. وهذا ما سجله د. حسين الحاج حسن قائلاً: "إننا لا نجد بين القبائل القحطانية والعدنانية أي خلاف يذكر على ما يظهر من روايات علماء اللغة.. وكلاهما مخالف للهجة أهل اليمن التي كانت سائدة إلى ظهور الإسلام، فلهجات أهل اليمن من الحميرية بعيدة عن

(1) المصدر السابق نفسه، ج 1، ص 83.
(2) عز الدين إسماعيل، المكونات الأولى، ص 160.
(3) د. محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية، مرجع سابق، ص 97.

اللهجات القحطانية والعدنانية"[1].

ثم إن هذه اللهجات جميعها انصهرت ببعضها، واندمجت تحت لواء اللغة العربية الحجازية وإن كان هناك إلى اليوم بعض اختلاف بقي بين لهجة اليمن وبين باقي اللهجات العربية.

ومما ساعد في تهذيب اللغة وتوحدها:

1- وجود الأسواق الموسمية عند العرب، كسوق عكاظ وذي المجاز وغيرها من الأسواق التي لم تكن تجمعاً فحسب، بل كانت ملتقى أدبياً يلتقي فيه الشعراء، ويأخذ بعضهم من بعض، ويعرض كل منهم صفوة ما عنده، وفي سوق عكاظ يقول طريف بن تميم:

أو كلما وردت عكاظ قبيلـــة بعثـــوا إلـي عـريفهـم يتـوسـم[2]

ويقول النابغة الذبياني:

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني تحـــت العجاج فما شققت غباري[3]

ويقول حسان بن ثابت الأنصاري:

سأنشر إن بقيت لهـم كـلامـاً يفـرق في المجامـع مـن عكـــاظ[4]

2- ثم جاء القرآن الكريم فكان كتاباً جامعاً وسطاً بين لغات العرب، ووسيلة مثلى للتقارب اللغوي.

واللغة العربية تمتاز بعدة خصائص منها:

1- كثرة ألفاظها واشتقاقاتها فهي جامعة لكل اسم أو معنى يقع في الكون.

2- صيغ المشاركة، التي تدل على اشتراك أكثر من فاعل في الفعل الواحد، كتخاصموا، وتشاركوا، وتشاجروا.

3- الإيجاز: وهو من خصائصها الفريدة، وفيه يقول ﷺ (أوتيت جوامع الكلم).

(1) حسن، د. حسين الحاج، حضارة العرب في الجاهلية، مرجع سابق، ص 65.
(2) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج 20، ص 115.
(3) الذبياني، النابغة، ديوانه، ص 187.
(4) ابن ثابت، حسان، ديوانه، ج 1، ص 73.

4- المجاز: وهو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الأصلي.

5- والأضداد: وهو لفظ يطلق للمعنى وضده في آن، كالجون يطلق على الأبيض والأسود معاً[1].

واللغة العربية عموماً "كانت تدل على حياة بلغت الذروة في الرقي، وتجلت فيها حضارة العرب أيما تجل"[2].

ومع ذلك فإن اللغة العربية "تعرضت لطوارئ كثيرة مثل سائر اللغات الحية، وتقلبت عليها أحوال شتى، فتنوعت ألفاظها بالنحت والإبدال والقلب، ودخلها كثير من الألفاظ الأعجمية في أعصر مختلفة"[3].

ومع ذلك فإن اللغة العربية كسائر اللغات الحية تتأثر بما حولها من اللغات وتؤثر فيها أيضاً، وهذا ليس بمعيب من شأنها بل يدل على قدرتها على مسايرة شؤون الحياة، وعدم الجمود والوقوف في موقف واحد، ولو أخذنا أمثلة عما يستجاد من لغة العرب لما وسعتنا صحف كثيرة، وكل ما نستشهد به فيما سيأتي، وما استشهدنا به فيما مضى يدل على عمق هذه اللغة وجلالة قدرها بين كل اللغات.

وهذا المقام ليس كافياً لعرض جميع الظواهر التي تناسب اللغة العربية إذ لها علوم معلومة متفرعة من علم اللغة.

ولكننا في نهاية هذا المبحث نريد أن نؤكد على شيئين، وهما:

1- أهمية اللغة العربية في الحياة العربية كونها مادة للثقافة العربية لا غنى عنها بحال، وصورة صادقة عن المجتمع العربي.

2- حيوية اللغة العربية، ومعنى حيويتها هو عدم جمودها، وبالتالي قابليتها للتطور ومسايرة

(1) لمزيد حول خصائص اللغة العربية وميزاتها، انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، المزهر، ج 2، ص326.

(2) فروخ، عمر، العرب والإسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، ص 78، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1966.

(3) كحالة، عمر رضا، العالم الإسلامي، ج 1، ص 76، 77، المطبعة الهاشمية، دمشق، الطبعة الثانية، 1958.

الحياة عبر تطوير ألفاظها وإدخال ألفاظ جديدة أو تطوير دلالات بعض الألفاظ، وكذا التأثر بما حولها من اللغات، والتأثير فيها.

10-الأمثال:

المثل قول موجز مختصر يشتمل على حكمة وعظة بليغة تقال في موقف معين أو لحادثة معينة، يقصد بها حسن التوجيه، وضرب مثل أخلاقية للسير على منوالها في الحياة.

وفي القرآن الكريم كثير من الأمثال التي ضربها للناس، قال تعالى: { وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون }[1]. وقال تعالى: { لقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل }[2].

والمثل صياغة مثالية لعقلية صاحبه، وأخلاقه، وتوجهاته في الحياة، ومن أمثال الأمة نعرف ثقافتها، ونستدل على قيمها.

ولهذا نجد الأمثال متباينة مختلفة حسب تنوع القوم الذين ظهرت بينهم: "ففي البيئة التجارية يكون المثل من هذه البيئة في الأغلب، وفي البيئة الزراعية يكون المثل مشرباً روح الزراعيين، وفي البادية تكون الأمثال ذات طبيعة بدوية"[3].

ولما كانت الأمثال مرآة لعقلية من ينسب قول المثل إليه أو من ضرب به المثل، تباينت في البلاغة وفي قوة التعبير، وعمق المعنى، وفي الفكرة. ولهذا اختلفت الأمثال في أهميتها وفي درجة إتقانها "فصار بعضها آية في الحكمة وفي قوة البيان، وفي عمق المغزى والمعنى وصار بعض منها بسيطاً تافهاً"[4].

إلا أن الغالب على أمثال اللغة العربية هو الإجادة، من حيث الشكل والمضمون، وهذا ما أكد عليه السيوطي: "الأمثال من حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض

(1) سورة العنكبوت، الآية(43).
(2) سورة الروم، الآية(58).
(3) جواد علي، المفصل، ج 8، ص 355.
(4) المصدر السابق نفسه، ج 8، ص 356.

كلامها، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية بغير تصريح، فيجمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه"[1].

وللأمثال نوع من الاحترام العميق في اللغة العربية لدرجة أن العرب كانوا لا يغيرون صورة المثل مهما اختلفت صيغ استعماله والمخاطبون به، فالقاعدة في المثل ألا تُغير بل تجرى كما جاءت، وقد جاء الكلام بالمثل وأخذ به وإن كان ملحوناً.

ومن ذلك مثلاً أن العرب ضربت مثلاً: "الصيف ضيعت اللبن" بكسر تاء المخاطبة – إذ كانت المخاطبة به في أصل وضعه أنثى – ولكنك لا تغير الصيغة إلى تاء المخاطب فتفتحها، وإن كنت تخاطب ذكراً فلابد من الالتزام بأصل المثل كما جاء ليفهم السامع المقصود، وليلتفت إلى العبرة التي ضرب المثل من أجلها.

وقد روعي في المثل أن "يكون قصيراً موجزاً معبراً عن كلمة فيها نغم وترنيم ليؤثر في النفوس"[2].

وقد اهتم العرب قديماً بالأمثال فجرت في مجالسهم ورددوها لأبنائهم، وتعلمها كبارهم. وقد ضربوا الأمثال بأشياء خرافية أحياناً كقولهم "طارت به عنقاء مغرب"، ويزعمون أنه طائر عظيم قديم انقرض.

وضربوا المثل بالحيوانات، كما في قصة الأرنب والثعلب والضب التي تجدها مبسوطة في مجمع الأمثال عند المثل " في بيته يؤتى الحكم"[3].

ونصبوا بعض عظام الرجال أمثالاً، كل منهم فيما اشتهر به من صفات نبيلة، وقيم خلقية سامية، كما قالوا: أسخى من حاتم، وأشجع من ربيعة بن مكدم، وأدهى من قيس بن زهير، وأحلم من قيس بن عاصم وغير ذلك..

(1) السيوطي، عبد الرحمن، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد جاد المولى بك وآخرين، ج 1، ص 234، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1987.

(2) جواد علي، المفصل، ج 8، ص 359.

(3) انظر: الميداني، أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج 2، ص 212، دار المعرفة، بيروت.

11- الغناء والموسيقا:

لم يكن العرب في معزل عن غذاء الروح، فالغناء يُرِيح الذهن، ويُلين العريكة، ويهيج النفس ويسرها، ويرتاح له القلب، وتهتز له الجوارح، وتخف له الحركات.

وكانت المرأة العربية قدياً لا تنيم طفلها وهو يبكي خوف أن يسري الهم في جسده، ولكنها تنازعه وتضاحكه حتى ينام وهو فرح مسرور فينمو جسده، ويصفو لونه، ويشف عقله، والطفل يرتاح إلى الغناء فيرقص له ويطير، وقالت منفوسة بنت زيد الخيل، وهي ترقص ولدها:

أشبه أخي أو أشبهن أباكـــا أما أبي فلن تنـــال ذاكـا
تقصر عن مناله يداكـا[1]

وكانت الملوك تنام على الغناء ليسري في عروقها السرور.

قال المسعودي: " إن فضل الغناء على النطق كفضل البرء على السقم"[2].

والغناء العربي قديم نشأ بسيطاً ساذجاً ثم تطور مع تطور الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والدينية، وكان القوم يتغنون وينشدون في مناسبات حفر آبار المياه، وبذر الحبوب، وجمع المحاصيل، وحصاد الزرع، والاحتفالات الخصوصية والعمومية، والدينية وعند الحرب وعند الخصومة وعند السفر، وكان العربي كثيراً ما ينشد الشعر متغنياً به، قال الشاعر:

تغـن بالشعـر إما كنت قائلـه إن الغناء لهذا الشعر مضمار

"وكان غناء العرب على ثلاثة أوجه: النصب والسناد والهزج: فالنصب غناء الركبان وغناء الفتيان، وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات، وأما الهزج فالخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار"[3].

(1) دلو، برهان الدين، جزيرة العرب قبل الإسلام، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، والثقافي، والسياسي، ج 4، ص 119، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 1989.

(2) المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: يوسف داغر، ج 4، ص 222، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط 4، بيروت، 1981.

(3) الألوسي، بلوغ الأرب، مصدر سابق، ج 1، ص 369.

وكان شعراء الجاهلية العربية يغنون شعرهم وينشدونه مغنى به وربما عبروا عن الغناء بالإنشاد، لأن الإنشاد ضربٌ منه أو هو مرتبة وسطى بين الغناء والقراءة.

وروى أن المهلهل شرب خمراً، ولما طابت نفسه تغنى بقصيدته التي مطلعها:

طفلة ما ابنة المحلل بيضا ... ءُ لذيذة في العناق[1]

وكان الأعشى يغني في شعره ويوقعه على الصنج، وكان يزور أساقفة نجران، ويمدحهم ويقيم عندهم الأيام الكثيرة، يسمعون منه الغناء موقعاً على آلة الصنج التي كان يتقن العزف عليها.

وفي ذلك يقول:

وكعبة نجران حتمٌ عَلَيْـ ... ـكِ حتى تناخي بأبوابهـا
نزور يزيد وعبد المسيـ ... ـح وقيسا وهم خير أربابهـا
وشاهدنا الورد والياسميـ ... ـن والمسمعات بقصابهـا
ومزهرنـا معمـل دائـم ... فأي الثلاثـة أزرى بهـا[2]

وعرف العرب أيضاً كثيراً من أدوات الموسيقا منها:

العـود: وهو آلة وترية شهيرة، وقال فيها الصقعب بن حيان التغلبي:

وقـرب الخـرد مـن قيـانـه ... عود له الفضل على عيدانه
أخف عند الحمل واحتضانه ... مـن ريشة توضع في ميزانه[3]

المزهر: وهو نوع من أنواع العود، فيه يقول امرؤ القيس:

لها مزهر يعلو الخميس بصوته ... أجش إذا ما حركته يدان[4]

وقال الأعشى:

وصـدوح إذا يهيجهـا الشَّـرْ ... ب ترقت في مزهر مندوف

(1) الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج 5، ص 44.
(2) المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها.
(3) المصدر السابق نفسه، ج 1، ص 212.
(4) امرؤ القيس، ديوانه، مصدر سابق، ص 36.

الصنج: وهو آلة ذات أوتار يضرب بها، وسُمي الأعشى صناجة العرب لأنه كان يوقع شعره على هذه الآلة بالذات، وقد أكثر من ذكرها في شعره يقول:

ومستجيب تخال الصنج يسمعه إذا ترجع فيه القينة الفضل

وقال أيضاً:

ترى الصنج يبكي له شجوه مخافة أن سوف يُدعى لها[1]

الدف: وهو آلة طرب من ملاهي الإيقاع ينقر عليها أو يضرب بها النساء، قال الشاعر:

إنّ فينا القيان يعزفن بالدف لفتياننا وعيشاً رخيا

ومن الآلات الموسيقية الأخرى التي عرفها العرب الكران والبربط والموتور والطنبور والطبل والمزمار والبوق وغيرها[2].

12- الجغرافيا عند العرب:

احتاج العربي إلى أن يعرف طرق الصحراء ومسالكها لضمان وصول القوافل التي كانت تمتار من أقصى الأرض: من الشام، والحبشة واليمن والهند وغيرها..

"فحركة التجارة الواسعة قد أكسبت العربي خبرة بأفضل الطرق وأصلحها لقوافل التجارة عبر الصحارى الشاسعة وأقربها لينابيع المياه"[3].

وهذه الحاجة الملحة لمعرفة الطرق، ومواطن الكلأ، وأفضل المراعي للحيوانات، وأماكن وجود الماء، وغيرها هي التي دعت العربي إلى أن يعرف جغرافية الأرض التي يسكن عليها، فميز بين جبالها وشعابها وسهولها ووهادها، وأطلق عليها أسماء تميزها عن غيرها لدرجة أن من " يتأمل في تاريخ أخبار العرب في الجاهلية كما روتها لنا أمهات التراث العربي لا يملك إلا أن يدهش لحركة الأفراد والجماعات الواسعة في شتى أنحاء شبه الجزيرة العربية

(1) كل التعريفات السابقة بشواهدها مأخوذة من الأغاني، الأصفهاني، ج 4، ص 445، ج 1، ص 402، ج 9، ص 28.
(2) دلو، برهان، جزيرة العرب قبل الإسلام، ج 1، ص 111.
(3) إسماعيل، د. عز الدين، المكونات الأولى، ص 182.

حتى ليخيل للإنسان أنهم كانوا يعرفونها شبراً شبراً"[1].

وفي الشعر الجاهلي نجد كثيراً من الشعراء الذين يذكرون الجبال، وخاصة في أحاديثهم عن السيول. ذلك أن: "قوة السيول كان تحط الوحش من ذرا هذه الجبال، وتنزل العصم من كل جانب من جوانبها، وهذا ما دفعهم إلى تصوير هذه الحركات العنيفة في أشعارهم، قال لبيد يصف سيلاً:

وحط وحوش صاحة من ذراها كـأن وعولها رمك الجمال
أقــولُ وصـوبُــه مـنـي بعـيدٌ يحط الشف من قُلل الجبال[2]

وقال أبو كبير الهذلي:

وعلـوت مرتقبـاً على مرهوبة حصـاء ليس رقيبهـا في مثمل
عيطـاء معنقـة يكـون أنيسهـا ورق الحمام جميمها لم يؤكل[3]

الكثبان: وهي أشكال عرفها شعراء الجاهلية، فارتسمت صورها في أذهانهم وحددوا أبعادها هندسياً " فكان ما استطال منها جبلاً، وما أعوج حقفاً، وما استدار دعصاً وما كان بين التقطع والاتصال منها فهو سقط، وما احدودب كثيباً ونقاً"[4].

وقد ذكر عبيد بن الأبرص الرمال فقال:

تغيرت الرمال بذي الدفيـــن فـأوديـة اللـــوى فـرمـال ليـــن[5]

وزهير بن أبي سلمى:

يهـدّ له ما بين رملـة عالـــج ومن أهله بالغور زالت زلازله[6]

السراب: ووصف الشعراء السراب، وشبهوه بتشبيهات بديعة كما قال امرؤ القيس:

أو المكرعات من نخيل ابن يا من دوين الصفا اللائي يلين المشقرا

(1) إسماعيل، د. عز الدين، المكونات الأولى، ص 182.
(2) القيسي، د. نوري حمودي، الطبعة في الشعر الجاهلي، ص 25، عالم الكتب، بيروت، ط 2، 1984.
(3) ديوان الهذليين، شرح السكري، بتحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ص 102، القاهرة، 1965.
(4) القيسي، د. نوري، الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص 27.
(5) المرجع السابق نفسه، ص 28.
(6) ابن أبي سلمى، زهير، ديوانه، مصدر سابق، ص 62.

سـوابـق جبـار أتيـــث فـروعه وعَاليـن قنواناً من البسْر أحمـرا[1]

الأودية: وذكر الشعراء الأودية، وتأسوا على من كان يسكنها من الرفاق والخلان، قال لبيد:

درس المنـــا بمتـالـــع فـأبـــان وتقادمت بالحبس فالسوبان
فنعاف صارة فالقنان كأنهـــــا زبـر يرجِعُهـا وليـدُ يَمـــان[2]

أما الوديان المقفرة المخيفة، فقد فعلت فعلها في نفوس الجاهليين قال زهير:

وبلـدة - لا تـــرام - خـائنـــة زوراء مغبـــرة جوانبـهـا
تسمـع للجن عـازفيـن بهـــا تضـج مـن رهبـة ثعـالبهـا
يصعد من خوفها الفـــؤاد ولا يرقد بعض الرقاد صاحبها[3]

الدارات: الدارة أرض سهلة لينة بيضاء في أكثر الأحيان، تنبت الأعشاب والنباتات الصحراوية، وللدارات شهرة في الأدب العربي وألف بعض الكتاب كتباً في جمعها، وجمع أدبها، كما فعل الأصمعي، والبكري[4].

واختلف في عدد الدارات في بلاد العرب، فقال الأصمعي: إنها ست عشرة دارة وقال الهمذاني سبع عشرة، وذكر البكري اثنتين وعشرين دارة، قال دريد بن الصمة:

فـدارة محصـن فبـذي طلـوح فسرواح المثامن فالضواحي[5]

ما اقتصرنا عليه في هذا المبحث هو قليل من كثير لنبين أن الشعراء لم يكونوا على جهل بجغرافية بلادهم، بل عرفوها وتغنوا بها، وارتبطوا بأوطانهم، تذكروا مغانيها، وأيامهم الجميلة، ومآسيها الفادحة، بل إن العرب قبل الإسلام عرفوا خامات أرضهم وأماكن وجودها، وحدودها بدقة، واستخرجوا المعادن، كما فعلوا في البحرين وفي موضع بيشة الذي كان الناس يجمعون التبر منه.

(1) الكندي، امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ص 57، دار المعارف، مصر، 1958
(2) لبيد بن ربيعة العامري، ديوانه، تحقيق: إحسان عباس، ص 108، طبعة المعارف، 1962.
(3) ابن أبي سلمى، زهير، ديوانه، مصدر سابق، ص 265.
(4) انظر: نوري القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، مرجع سابق، ص 35.
(5) المرجع السابق نفسه، ص 37.

وللعرب أيضاً علم يسمى علم الريافة، وهو استنباط الماء من باطن الأرض، ولهم علم الاهتداء في البراري، وهو علم يتعرف به أحوال الأمكنة من غير دلالة عليه بالأمارات المحسوسة دلالة ظاهرة أو خفية، لا يعرفها إلا من قد تدرب فيها كالاستدلال برائحة التراب ومنازل القمر.. وغير ذلك[1].

13- علم الفلك:

لحاجة العرب لمعرفة زمن سقوط المطر ليحصنوا بيوتهم، ويحفروا من خلفها ونياً يجعل الماء ينساب عنها ذات اليمين، وذات الشمال ويخرجوا إبلهم وأغنامهم من الوادي فيجعلوها على جلهته اتقاء لسيل مباغتٍ يأتي عليها.

ولحاجتهم لمعرفة زمن الربيع، وأماكنه فيخرجون إليه بأغنامهم ويرحلون بعيالهم فيلقونه ويتشممون أريج وروده لتسمن مواشيهم وتستقر أمورهم..

وبما أنهم تبايعوا، وتداينوا وتعاهدوا وتهادنوا وتكاتبوا واحتاجوا للحج فحجوا.. واحتاجوا إلى شهور يتهادنون فيها ويرفعون فيها السيوف عن بعضهم ويقيمون أسواقهم.

لحاجتهم كلهم إلى قضاء حوائجهم.. لأجل ذلك كله..

كان لابد للعرب من معرفة التقويم ومن الضرب بنصيب في علم الفلك.

وتشير الروايات إلى أن العرب قد قسموا السنة كما فعل من قبلهم اليونان وبقية الساميين إلى اثني عشر شهراً.. وقد وردت إشارة إلى ذلك في القرآن الكريم {إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم }[2].

غلب على العرب استعمال التقويم القمري، ومبدأ الشهر فيها بالهلال، وانتهاؤه بمحاقه..

وتعددت الثقافة العربية واتسعت في مسميات الشهور العربية القمرية، ومنها: المؤتمر ويقابل المحرم، وناجز ويقابل صفرا، وخوان ويقابل ربيع الأول، ووبصان ويقابل ربيع

(1) انظر: الألوسي، بلوغ الأرب، ج 3، ص 349.
(2) سورة التوبة، الآية(36).

الآخر، والحنين ويقابل جمادى الأولى، وملحان ويقابل جمادى الآخرة، والأصم ويقابل رجباً، وعاذل ويقابل شعبان، وفاتق ويقابل رمضان، ووعل ويقابل شوالا، ورنة ويقابل شهر ذي القعدة، وبرك ويقابل شهر ذي الحجة[1].

أما أسماء الأيام فهي:

شيار = السبت ، أوّل = الأحد ، أهون أو أوهد = الاثنين ،

جُبار = الثلاثاء ، دبار = الأربعاء ، مؤنس = الخميس ، العروبة = الجمعة[2].

ولم يقف العرب من الظواهر الكونية موقف المتفرج المستغرب أو المنبهر الذي لا يعرف شيئاً، بل إنهم تعاملوا معها وفق حاجاتهم وصادقوها، فحاوروها في آدابهم، واستنطقوها بقصد الاستدلال منها هي نفسها عن وظائفها الكونية، وكيف يتعاملون معها في مختلف حالاتها.

وفي الجزء التاسع من المخصص لابن سيده معجم لغوي كامل لكل ما استعملته العرب في لغتها من أسماء للأنواء، وذكر السماء والفلك، وأسماء المنازل وصفاتها، وبروج السماء، ومنازل الشمس والقمر فيها وإحاطة بالظواهر الطبيعية من ريح ومطر وسحاب ورعد وبرق ومطر وسيل وخصب وجدب، مما يدلنا على علم غزير وافر، أحاط به العرب، وعلى تنوع ثقافي في لغتهم[3].

ويسجل بعض الباحثين شهرة معرفة العرب بالنجوم ومواقعها يقول جرجي زيدان "ومعرفة العرب بالنجوم مشهورة، فقد عرفوا السيارات والأبراج، وعرفوا عدداً كثيراً من الثوابت، ولهم في ذلك مذهب يختلف عن مذهب المنجمين في الأمم الأخرى، وفي قدم أسماء تلك النجوم في العربية دليل على قدم معرفة العرب بها وبمواقعها مثل: بنات نعش الصغرى والكبرى والسها والظباء والفرقد والراي والأغنام.. وغيرها "[4].

(1) ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص، ج 9، ص 43، تحقيق: لجنة إحياء التراث في دار الآفاق الجديدة، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت.

(2) المصدر السابق نفسه، ج 9، ص 29.

(3) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، ص 4، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

(4) المرجع السابق نفسه، ص 7.

ورغم أن جرجي زيدان في النص السابق يعطينا انطباعين هامين وهما:

أ- قدم معرفة العرب بالنجوم وتميزهم فيها.

ب- اختلاف العرب عن الأمم الأخرى في معرفة النجوم.

لكنه يعود في نص آخر ليناقض نفسه فيقول بتأثر العرب بالكلدان "ويقال بالإجمال إن العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان، وهم يسمون الصابئة، والصابئة إن لم يكونوا الكلدان أنفسهم فهم خلفاؤهم وكان الصابئة كثيرين في بلاد العرب.."[1].

وسواء أكان العرب أصيلين في هذه العلوم أو مستفيدين من علوم أمم سابقة، فالمحصلة أنهم على دراية ووعي بعلم الفلك والنجوم تغني لهم حاجتهم في ذلك الوقت.

14- الصناعة:

المجتمعات البدوية عادةً لا تنتشر فيها هذه المهنة، وإن كانت غير معدومة على الإطلاق للحاجة إليها.. فالبدوي يحتاج لخياطة خيمته، ونجارة أوتادها وأعمدتها، وفتل حبالها، وصناعة المداوير لها، ويحتاج إلى صناعة النعال لخيله، وصنع النعال له أيضاً.. والحاجات كثيرة ومتعددة..

بيد أن العربي نظر إلى المهن نظرة استعلاء واستكبار، فالصناعة تحتاج إلى الاستقرار، والجهد والرتابة، والتفرغ التام، وهو ما يتنافى مع طبيعة العربي المنطلقة الجامحة، ونفسه التي كرهت القيود والرتابة.

بالإضافة إلى أن الصناعة كانت ميزة تميز الموالي، والعبيد الذي أسروا واستعبدوا من الأمم الأخرى.. فكيف للعربي الذي يفاخر بنفسه، ويذود عن نسبه أن يحترف مهنة جل من مارسها من العبيد والموالي المسخرين للخدمة قسراً..

"وأغلب العملة فقراء لا يملكون شيئاً.. ورزقهم بعملهم، فإذا مرض أحدهم أو أصيب بعاهة انقطع رزقه.."[2].

(1) المرجع السابق نفسه، ص 164.

(2) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 507.

ولكي تقوم صناعة في مكان ما فلابد أن تتوافر شروط إقامتها من أمن واستقرار ووجود الحاجة إليها ومن توافر المواد الأولية فيها والمواد الخام اللازمة لها.

ولهذا وجدت الصناعة في جزيرة العرب في الأماكن التي شهدت استقراراً نسبياً كما في اليمن مهد الحضارات، والدول المتعاقبة، وفي الشمال حيث ممالك المناذرة والغساسنة وغيرها..

"واليمن هي في مقدمة أجزاء جزيرة العرب في الصناعة ولا نكاد نجد في جزيرة العرب مكاناً يسبقها.. وهي الأولى في الإنتاج أيضاً.."[1].

وقد كانت صناعات بلاد اليمن متعددة، فاشتهرت بالبرود اليمانية، وكذا الوشي اليمني.. بمعنى حياكة الثياب وزخرفتها، وكذا اشتهرت بإنتاج السيوف، فقيل سيف يمان، وربما أطلق لفظ اليماني مفرداً وأريد به السيف، مما يدلنا على ازدهار صناعة الحديد واستخراج المعادن وتحويلها إلى مصنوعات.

ونظر العرب في جزيرتهم فوجدوا كثيراً من المعادن التي تخبرنا المصادر أن العرب عرفوها وانتفعوا بها "فقد استخدم أهل اليمن الرصاص في كثير من الأعمال منها صبه في أسس الأعمدة وبين مواضع اتصال الحجارة ليرتبط بعضها ببعض، وقد عثر المنقبون على بقايا منه في مواضع متعددة من الأماكن الأثرية"[2].

ومن المواضع التي تخبرنا عنها المصادر بأنها غنية ببعض المعادن: رغافة بالقرب من اليمن، وفيها معدن الحديد، وأيضاً في قساس وهو جبل بديار بني نمير.. وغيرها[3].

وعرف العرب أيضاً النحاس والكبريت.. وعرفوا بعض الأحجار الكريمة التي تمتعوا بها، وزينوا بها نساءهم، وحلوا بها سيوفهم، ومنها الجزع وهو من الأحجار التي تستعمل في الفصوص، ويبدو أن لها لمعاناً وبريقاً متميزاً، يخبرنا امرؤ القيس:

(1) المصدر السابق نفسه، والصفحة ذاتها.
(2) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 516.
(3) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 516.

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب[1]

والنابغة يورد في شعره كثيراً من هذه الأحجار الكريمة:

في إثـر غانية رمتك بسهمهـا فأصاب قلبـك غير أن لم تقصد
بالـدر والياقوت زين نحرهـا ومفصـل مـن لـؤلـؤ وزبـرجد
كمضيئـة صدفيـة غواصهـا بهجٌ متـى يرهـا يهـل ويسجـد
أو دمية في مـرمـر مرفوعـة بُنيـت بـآجر يشـاد بقـرمـد[2]

ويقول طرفة بن العبد:

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن مظاهر سمطي لـؤلـؤ وزبـرجد[3]

وعرف العرب أيضاً بعض الصناعات البحرية الأخرى كصناعة السفن يقول طرفة:

كـأن حمـول المـالكيـة غـدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدي[4]

ثم هو يشبه ناقته بألواح التابوت مما يدل على أن صناعة الأخشاب كانت مزدهرة:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بهوجاء مرقال تروح وتغتدي
أمـون كـألـواح الأران نسـأتهـا على لاحب كأنه ظهر برجدٍ[5]

15- الطـب:

عرف العرب في الجاهلية الطب لعلاج أنفسهم، وعلاج حيواناتهم - وهو أي الطب - في بداياته قائم على التجربة البسيطة والملاحظة العفوية لفوائد بعض الأعشاب، وهذه الأشياء يتناقلونها بالتوارث عن مشايخ الحي وعجائزه، وهو على أي حال ليس قائماً على أسس علمية، فقد كانوا يعالجون بالكي، ومن أمثالهم: آخر الدواء الكي.

(1) امرؤ القيس، ديوانه، مصدر سابق، ص 72.
(2) النابغة الذبياني، ديوانه، مصدر سابق، ص 53.
(3) ابن العبد، طرفة، ديوانه، دار صادر، بيروت، د.ت، ص 82.
(4) المصدر السابق نفسه، ص 83.
(5) المصدر السابق نفسه، ص 83.

وكذلك فإن لهم العلم التام "في معالجة الدواب من الخيل والبغال والحمير والإبل ونحو ذلك، ومعرفة تربيتها على أحسن وجه مما لا يبلغهم به غيرهم"[1].

بيد أن هناك جانباً آخر من الطب هو العلاج بالرقى أو السحر عن طريق الكهنة والعرافين.. ويبدو أن هذا العلاج كان لمعالجة المرضى النفسيين الذين يعانون من أمراض لم يعرف لها العرب علاجاً. فقد حاول بعضهم أن يشفي عروة بن حزام من داء الحب والعشق الذي كاد أن يأتي على نفسه بعد أن ترك الأكل والشرب، فتضاءل جسمه، وضعف ضعفاً شديداً، ويشير هو إلى ذلك بقوله:

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعرّاف نجد إن هما شفياني

"وكان التطبيب بالرقى شائعاً في الأمم القديمة كلها، وقد وجدوا في الآثار المصرية كثيراً من العزائم التي كانوا يصفونها لمعالجة المرضى، وجاء من أخبارهم أن كاهنهم كان إذا سار لمعالجة مريض صحبه خادمان: أحدهما يحمل كتاب العزائم، والثاني العقاقير الطبية، وهم يعالجون بالاثنين معاً.."[2].

وقد ذكر علماء اللغة أن الطب، قد يستعمل مجازاً بمعنى السحر، واستشهدوا لذلك بقول ابن الأسلت:

ألا مـن مبلـغ حسـان عنـي أطب كان داؤك أم جنون[3]

ولا يخلو الطب العربي القديم من بعض الطرائف، فقد كانوا يعالجون بعض العاهات الطبيعية من مثل وصفهم للأحول بأن يديم النظر إلى حجر الرحى، ويزعمون أنه بذلك تستقيم عينه، ويزول حوله.

ولهم بعض الأشياء الغريبة الأخرى التي منها أن المجروح إذا شرب ماء مات وإذا خافت المرأة حتى برد قلبها سقوها ماءً حاراً[4].

(1) الألوسي، بلوغ الأرب، ج 3، ص 327.
(2) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، ص 23، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
(3) انظر: جواد علي، المفصل، ج 8، ص 380.
(4) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ص 27.

ومنها أن العر وهو الجرب إذا أصاب إبلهم داووه بالقطران، وهو النفط الأسود الذي كانوا يستخرجونه من باطن الأرض قال علقمة الفحل:

قد أدبر العر عنها وهي شاملها من ناصع القطران الصرف تدسيم[1]

وربما أخذوا بعيراً صحيحاً من الداء فكووا مشفره وعضده وفخذه، يرون أنهم إن فعلوا ذلك ذهب العر عن إبلهم قال النابغة:

وكلفتني ذنب امرئ وتركتـــه كذي العر يكوى غيره وهو راتع[2]

وقد ظن الجاهليون أن النوم يؤدي إلى امتداد السم في جسم اللديغ فكانوا يعلقون الجلاجل والحلي على اللديغ ثم تحرك لئلا ينام.. فيدب السم في جسده، ويقولون: إنه إذا علق عليه أفاق، فيلقون عليه الأسورة والرعاث، ويتركونها عليه سبعة أيام، ويمنع من النوم. قال النابغة:

يسهدني وقت العشاء سليمها لحلي النساء في يديه قعـاقـع

وعولجت كسور العظام بالجبائر وبالدلك ووضع المناقيع فوق العضو المصاب عظمه بالكسر وربما عالجوا أيضاً ببعض النباتات كالبصل والثوم والكمون والكرفس والإذخر.

"وقد كان في الجاهلية من العرب أطباء موسومون بالحذاقة، موصوفون بالرئاسة في الفن غير من كان منهم في اليمن وعند التبابعة، فإن هؤلاء لا يمكن حصرهم"[3].

ومن أقدم أطباء العرب: لقمان الحكيم - كما يزعمون - وفي أصله وزمن وجوده اختلاف، ومن بعده رجل من بني تيم الرباب يقال له ابن حذيم ويضربون به المثل في الخدمة فيقولون أطب ابن حذيم وفيه يقول أوس بن حجر:

فهـل لكم فيهـا إلـيّ فـإنني بصير بما أعي النطاسي حذيما[4]

(1) الأصفهاني، الأغاني، ج 12، ص 225.
(2) النابغة، ديوانه، مصدر سابق، ص 43.
(3) جواد علي، المفصل، ج 8، ص 400.
(4) الألوسي، بلوغ الأرب، ج 5، ص 327.

ومن آخر أطباء الجاهلية الحارث بن كلدة الثقفي رحل إلى فارس وتعاطى صناعة الطب هناك، ثم عاد إلى الطائف، وأقام فيها واكتسب شهرة كبيرة في بلاد العرب، ويروي له الألوسي مناظرة طويلة مع كسرى يحوم الشك حول صحتها[1].

16- الرحلات التجارية:

جاب العرب الصحراء يبتغون الرزق.. ويجلبون البضائع من الأمم المجاورة، فعرفوا المسالك السهلة الميسرة لسلوك الطرق وارتبطوا بعلاقات تجارية وطيدة مع العالم الموجود في ذلك الوقت أي الذي وصلت إليه إبلهم وسفنهم أو قادتهم إليه أقدامهم فأقاموا علاقات تجارية مع بلاد فارس والشام والحبشة ومصر والهند، وقد ساعد العرب على ذلك موقع جزيرتهم المتميز، فقد كانت الجزيرة العربية طريقاً تجارياً بين عالمي الشرق والغرب، ومعبراً طبيعياً لقوافل التجارة البرية والبحرية التي عدت مورداً اقتصادياً هاماً في حياة العرب الاقتصادية ويبدو أن موقع الجزيرة العربية المتميز على البحر الأحمر والخليج العربي وبحر العرب وكونها تحد بالشام والعراق وفارس من ناحية، وعدم وجود دول عربية قوية لها أطماع سياسية في الدول المجاورة من ناحية أخرى.. جعلت من العرب وسيطاً تجارياً ممتازاً بين كل الأطراف باعتبارهم تجاراً محترفين وهذه النظرة إلى الحرفة التجارية للعرب ليست جديدة في التاريخ الأدبي فقد قال عنهم الجغرافي اليوناني استربون ت 25 ق.م " أن العرب تجار سماسرة وأهل بيع وشراء وليسوا أمة حرب لا في البر ولا في البحر "[2].

ولتأسيس التجارة العربية قام العرب بعدة خطوات منها إنشاء الطرق والمسالك وحماية الطرق والقوافل وإنشاء الثغور والمدن التجارية، وإقامة الأسواق الموسمية والمحطات التجارية.

أ- الطرق البحرية:

من هذه الطرق: طرق تجارية بحرية مع الدول الأفريقية وباقي الدول الآسيوية الهند والسند وغيرهما، وقد كانت هذه الطرق عموماً سهلة ميسورة، وخصوصاً طرق تجارة

(1) المصدر السابق نفسه، ج 3، ص 330.

(2) نقلاً عن: الأفغاني، سعيد، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص 17، دار الفكر، بيروت، 1970.

جنوب الجزيرة العربية أي اليمن، وما حذا حذوها، فعرض البحر ضيق بين اليمن وبين إفريقية، وكانت البضائع المتبادلة هي حاصلات اليمن من بخور وكتاب وورق وغيرها وتعود محملة بالأخشاب.. والعاج وربما الزنوج أيضاً[1].

وقد شارك العرب في التجارة في البحر الأحمر سفن الروم واليونان، ولكن العرب استفادوا من هذه التجارة أيضاً بفرضهم رسوماً وضرائب على تنقل السفن بين موانئهم، خاصة وأن الملاحة في البحر الأحمر كانت شاقة إذا كانت بطريق طولي باعتبار أن البحر الأحمر تكثر فيه الشعب المرجانية والمرتفعات مما يحتم على السفن سلوك طرق معلومة والرسو على أماكن محددة سيطر عليها العرب وفرضوا رسوماً عليهم.

"وطالما تشكى الرومان واليونان من فداحة الأرباح والضرائب التي كان يفرضها التجار العرب على البضائع المرسلة إليهم والتي كانوا يحتاجون إليها ويشترونها بأي ثمن"[2].

ومن بين الموانئ العربية القديمة على شاطئ البحر الأحمر موانئ الشعيبة والجحفة وجدة، أما الملاحة العربية البحرية مع فارس والهند فقد كانت تقوم على السفن الهندية والفارسية.

ب- الطرق البرية:

أما عن الطرق البرية، فقد كان للقوافل بين اليمن والشام وبلاد الروم واليونان طرق خاصة تتكون من مراحل، ومن استراحات تتزود فيها الإبل ويرتاح فيها المسافرون، وهناك أيضاً بعض الفصائل الحربية الصغيرة التي تحمي تلك القوافل.

وعن مسيرة القوافل يخبرنا جرجي زيدان: "القافلة كانت تسير في حضرموت وعمان وتسير شمالاً يخفرها عرب قيدار، فيقطعون بها بادية الدهناء وما بعدها حتى تصل إلى دوان فتعطف غرباً في نجد حتى تأتي إلى الحجاز، ومن هناك يستلم خفارتها الأنباط فيعرجون بها إلى مكة أو ينبع أو المدينة ومنها إلى بطرا عن طريق مدائن صالح، ومن بطرا تسير إما شمالاً إلى

(1) جواد علي، المفصل، ج 7، ص 262.
(2) المصدر السابق نفسه، ج 7، ص 270.

فينيقية وفلسطين فتدمر، وإما غرباً إلى مصر، أما العراق فكانت التجارة تنتقل إليها رأساً من شرقي الجزيرة.. وقد ذكر بلينيوس وبطليموس وغيرهما تفاصيل مهمة عن طريق التجارة ببلاد العرب"[1].

ج- حمايـة القوافـل:

انتبه العرب إلى أهمية الأمن في حركة الاقتصاد والتجارة فحاولوا بسبل عدة ضمان أمن قوافلهم وأسواقهم، ومن ذلك أنهم جعلوا أشهراً أربعة حرموا فيها القتال والتقاتل حتى إن المرء لربما لقي قاتل أبيه في تلك الأشهر فلا يقتله، وهذه الأشهر ثلاثة منها متتالية هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، وشهر منها جاء فرداً بعد خمسة وهو رجب، وكانت لهذه الأشهر حرمة عظيمة فلا ينتهكها أحد، حتى إن قريشاً وهوازن لما تقاتلتا فيها سمت العرب حربهم حرب الفجار.

واستأجر العرب أيضاً بعض البدو وعدداً من فتاك العرب - الذين خلعتهم قبائلهم وتبرأت منهم لحماية قوافل التجارة، فحققوا بذلك هدفين في وقت واحد: الأول حماية القوافل من هؤلاء الفتاك أنفسهم. والثاني: حماية القوافل من اعتداء الآخرين عليها.

ولم يقتصر الأمن التجاري على ذلك فقط فقد أقام العرب المعاهدات والاتفاقات مع الدول الأخرى لضمان حماية القوافل.

ولتأمين تجارة عادلة لا مكر فيها ولا تحايل ولضمان الحقوق التجارية أنشأت قريش وهي أكبر القبائل العربية ممارسة للتجارة حلفاً سمي حلف الفضول لمنع الظلم والاعتداء على حقوق التجار، ومن نصوصه أن يكونوا مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه ما بل بحر صوفة وما رسا حراء وثبير مكانهما وهذا الحلف شهده رسول الله ﷺ وأثنى عليه فقال: (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن يكون لي به حمر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت)[2].

(1) زيدان، جرجي، العرب قبل الإسلام، ص 18، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 92، ط 1، مصدر سابق.

د- الأســواق:

وجعل العرب موسماً للتسوق والتجارة الحرة تقام في مختلف أيام السنة ومنها أسواق كبرى تقام في الأشهر الحرم كما هو الحال في سوق عكاظ الذي يقام في مطلع ذي القعدة وسوق حضرموت في منتصفه، وفي آخره يقام سوق مجنة ثم سوق ذي المجاز مع بداية ذي الحجة، وفي محرم يقيمون سوق اليمامة وفي رجب يقيمون سوق صحار وحباشة[1].

والأسواق العربية - كما هو معلوم - كانت مجمعاً تجارياً ثقافياً أدبياً اجتماعياً يلتقي فيها العرب وغير العرب من جميع أنحاء الجزيرة العربية يتبادلون السلع والبضائع ويستفيدون الأخبار وينشدون الأشعار، وتقام بينهم فيها الحكومات الأدبية، والفصل في المنازعات التي تحدث بين القبائل.. وكذا الفصل بينهم في أمور اجتماعية فالأسواق إذن كانت المصفاة التي هذبت فيها لغة بعض القبائل واستفاد بعضها من بعض، ورويت فيها بعض الأشعار فعرف بعض الشعراء زملاءهم وكيف ينظمون، واستفادوا ثقافة ثرة عن طريق هذا الملتقى الثقافي العام.

وكتب الأدب ملأى بأخبار المناظرات التي تقع بين الشعراء في عكاظ وكان النابغة - كما نعرف - حكماً بين الشعراء. ولغة قريش هي اللغة المفضلة في هذه المجامع إذ هي اللغة الوسطى بين لهجات القبائل العربية، ولذلك نزل القرآن بها.

ولم يكن تفضيل لغة قريش على باقي اللغات من باب العصبية أو الانقياد الديني لمكانة قريش الدينية باعتبارها حامية الكعبة والقائمة على أديان العرب فحسب، بل لأن قريشاً كما يقول قتادة بن دعامة السدوسي: قد كانت تجتبي أفضل لغات العرب.. حتى عدت لغتها أفضل اللغات واللهجات فنزل القرآن بها.. ولو اتبع كل شاعر لهجة قومه وحدها لم يجد من يستحسنها غيرهم، ووقفت عن الشهرة، ولم تروها القبائل العربية الأخرى فيفوته الافتخار بها"[2].

ولهذا كانت العرب تعرض أشعارها على قريش فما قبلوه منها كان مقبولاً وما ردوه منها كان مردوداً، فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمي فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

---

(1) حمور، عرفان، أسواق العرب، ص 352.

(2) حمور، عرفان، أسواق العرب في الجاهلية، ص 147، نقلاً عن: قتادة السدوسي.

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم
لـم أدر بالبيـن حتـى أزمعـوا ظعنـا كل الجمال قبيل الصبح مزموم

فقالوا: هذه سمط الدهر، ثم عاد علقمة إلى قريش مرة أخرى في العام المقبل فأنشدهم ثانية يقول فيها:

طحابك قلب في الحسان طـروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
يكلفنـي ليلـى وقـد شـط عهدهـا وعـادت عـوادٍ بيننـا وخطـوب
إذا غاب عنها البعل لم تفش سـره وترضي إياب البعل حين يؤوب
فـإن تسـألـونـي بالنسـاء فـإننـي بصيـر بـأدواء النسـاء طبيـب
إذا شاب رأس المـرء أو قـل مـالـه فليـس لـه مـن ودهـن نصيـب

فقالوا: هاتان سمطا الدهر[1] وإذا أراد الشاعر لقصيدة أن تنتشر فلا يجد مكاناً لها أفضل من عكاظ وربما كان الشعر مديحاً أو فخراً أو هجاء، كما فعل خلف الخزاعي حين هجا حسان بن ثابت، فقال:

ألا مـن مبلـغ حسـان عـني مغلغلـة تـدب إلـى عكـاظ
أليـس أبـوك فينـا كـان قينـا لدى القينات غسلا في الحفاظ
يمـانيـاً يظـل يشـد كـيـرا وينفـخ دائمـاً لـهـب الشـواظ

فأجابه حسان بن ثابت الأنصاري من نفس المنبر "عكاظ":

أتـانـي عـن أميـة قـول زور وما هـو بالمغيـب بذي حفـاظ
سأنشر ما حييت لهم كلاماً ينشـر بالـمجامع مـن عكـاظ[2]

هذه هي المحصلة الثقافية الداخلية للتجارة العربية صفاء اللغة ونقاؤها تبادل الثقافة: العلم، الشعر، القيم الاجتماعية، والخلقية، والدينية وغيرها.

أما ما استفاده العرب من التجارة الخارجية، فقد رأينا أنهم خالطوا أقواماً مختلفي

(1) الضبي، المفضل بن محمد، المفضليات، تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، ص 390، دار المعارف، 1983.
(2) حمور، عرفان، أسواق العرب، ص 151.

الجنسيات، مختلفي اللغات، مختلفي الحضارات، كالأفارقة من حبش وسودان وغيرهم من الأقباط والآراميين والرومان والفرس والهنود والسريان.

وهذا الاختلاط التجاري لم يكن ليمر دون أن يترك آثاره على لغة العرب وثقافتهم، كما تقتضي الفطرة السليمة، والطبيعة البشرية التي تقبل الجديد وتتأثر بالآخرين.

وليس الأخذ والعطاء دليلاً على وجود نقص في لغة "ما" أو وجود ضعف في تفكير المتكلمين بها، فكل اللغات مهما بلغت من النمو والكمال والسعة لابد من أن تأخذ وأن تطور مدلولات أو تضع مفردات جديدة لأمور لم تكن معروفة وموجودة عندها[1].

والمفردة الغريبة إذا دخلت لغة "ما" فإنها تصبح جزءاً منها وتتجنس بجنسية تلك اللغة، وإن كان أصلها من لغة أخرى، ولذا نجد ابن عباس رضي الله عنه يرجع بعض مفردات القرآن الكريم إلى لغات أخرى وأيده في ذلك جمع من العلماء ومنهم السيوطي الذي ألف كتاب (المتوكلي فيما ورد القرآن من اللغات الأخرى)، وألف الجواليقي كتاب (المعرب من الكلام الأعجمي).

إن وجود الألفاظ المعربة في اللغة العربية دليل على التواصل الثقافي والفكري بين العرب وغيرهم من الأمم الأخرى، وهذا التواصل تواصل حضاري فكري ثقافي لم يقتصر على أمور تجارية أو مادية فقط.

"وأكثر المعربات الجاهلية هي من أصل آرامي أو فارسي ثم تليها المعربات المأخوذة من لغات أخرى مثل اليونانية والعبرانية واللاتينية والحبشية والقبطية وكثير من الألفاظ اليونانية إنما دخل إلى العربية عن طريق السريانية"[2].

وبنظرة على تصنيف المعربات في اللغة العربية، نجد أنها تتناول أموراً حضارية في الغالب من أمثال أمور الزراعة والصناعة وأسماء المأكول والملبوس، وفي شؤون جزئية ومصطلحات تستعمل في شؤون البحر.. وغيرها..

(1) جواد علي، المفصل، ج 6، ص 694.
(2) جواد علي، المفصل، ج 8، ص 704.

وقد وضع علماء العربية عدة معايير لمعرفة أن اللفظ أعجمي منها:

- أن ينقل أحد أئمة اللغة الثقات ذلك.
- عدم موافقة اللفظ لأوزان العربية مثل أبَريسم.
- أنا يكون أوله نون ثم راء مثل نرجس.
- أن يكون آخره زاي بعد الدال مثل مهندز.

وغير ذلك من المعايير التي وضعها علماء اللغة الأثبات[1].

(1) انظر بشكل تفصيلي: السيوطي، المزهر، مصدر سابق، ج 2، ص 268.